جامعة الأزهر

كلية البنات الإسلامية بأسيوط

المجلة العلمية

أثر النظرة الكلية للعمل الفني في بناء القاعدة البلاغية عند الإمام عبد القاهر (ابن المعتز أنموذجًا)

إعداد

أ.د/ عصام عبد الحافظ عبد العال عبد الحافظ

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد .

كلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد الواحد والعشرون)

(يونيه ١٤٤٥هـ /٢٠٢٤م)

أثر النظرة الكلية للعمل الفني في بناء القاعدة البلاغية عند الإمام عبد القاهر (ابن المعتز أنموذجاً)

عصام عبد الحافظ

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الإلكتروني: *essamabdelhafez @azhar.edu.eg47.*

الملخص

يقوم هذا البحث بالرد على المتربصين للغة العربية وآدابها من محاولة إثبات أن النظرة العلمية فيها كانت قائمة على نظرات جزئية دون استقصاء وشمول بالنظرة الكلية.

ومن ثم فالغرض من هذا البحث هو إثبات النظرة الكلية لشيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر في اختياره لشواهد ابن المعتز على التشبيه والتمثيل ، ومدى براعة توظيفه لتلك الشواهد بما فيها من جزئيات ، حيث إن هذه الجزئيات تمثل كليات في نظر الإمام تخدم القاعدة البلاغية التي يرمي إليها ؛ ومن هنا يجب على الباحثين والقارئين لفكر الإمام وكلامه استيعاب تلك النظرات الجزئية ، وربطها ببعضها ؛ حتى يتمثل في أذهانهم فقه الكليات ، والوقوف على بلاغتها التي راعى فيها الإمام حال القائل والمقول والمتلقي ؛ ومن ثم استثمارها لضبط القواعد ، وترسيخها في ذهن المتلقي ، سواء أكان ذلك من خلال النظرة الكلية للمذهب الفني للشاعر ذاته ، أو مقارنة مع غيره ، أو من خلال مراعاة القيمة الفنية لشعر الشاعر وتأثيرها في المتلقي.

قد جاءت الدراسة التطبيقية في رياض شاعر له مكانته الشعرية . وهو ابن المعتز . بما عرف به من تشبيهاته وحسن إبداعاته ، فهو الأديب والشاعر الملهم ؛ فاختار الإمام عبد القاهر من شعره ما يصل به إلى هدفه في تأسيس ، أو توضيح القاعدة البلاغية التي يرمي إليها.

الكلمات المفتاحية :النظرة الكلية، العمل الفنى، القاعدة البلاغية، عبد القاهر، ابن المعتز إنموذجا.

The Impact of the Holistic View of Artistic Work on the Construction of Rhetorical Principles by Imam Abd al-Qahir: Ibn al-Mu'taz as a Model

Essam Abdelhafez,

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of the Arabic Language, Assiut, Al-Azhar University, Egypt

essamabdelhafez.47@azhar.edu.eg

Abstract

This research responds to those who undermine the Arabic language and its literature by attempting to prove that the scientific perspective on it was based on partial views without thorough investigation and inclusiveness of the overall perspective. Therefore, the purpose of this research is to demonstrate the comprehensive perspective of the master of eloquence, Imam Abdul Qahir, in his selection of Ibn al-Mu'taz's examples of similes and metaphors. It also shows the extent of his skill in employing those examples, including their particulars, as these particulars represent the universals in the Imam's view, serving the rhetorical principle he aims for. Thus, researchers and readers must comprehend those partial views of the Imam's thought and speech, linking them together so that the comprehensive understanding of the principles manifests in their minds. Thus, they can grasp its eloquence, in which the Imam considered the condition of the speakers, their statements, and the recipients, and then utilize them to establish the rules, and instill them in the minds of the recipients. This study has been applied to Ibn Al-Mu'taz's poetry, with its similes and excellent creativity, from which Imam Abdul Qahir has cited to serve his purpose in establishing or clarifying the rhetorical rule he aims for.

Key words: *holistic view – artistic work – rhetorical principles – Abd al-Qahir - Ibn Al-Mu'taz – as a model*

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد .

من التحديات التي تواجه أمتنا وتراثنا العربي . كما يُفهم من النظرة الأولى عند المتربصين بها . اتهامها أن النظرات العلمية في تراثنا العربي لم تك نتيجة أحكام كلية، بل كانت نتيجة أحكام جزئية .

وإذا كان الواجب العلمي يُوجب استيعاب القواعد البلاغية ، فإنه يُوجب . أيضًا . البحث عن الشواهد والنماذج الشعرية المتنوعة ، والتي تكون في مجموعها نظرات كلية قادرة على النهوض بتلك القواعد ، وحاكمة لكل ضوابطها .

ومنبع هذا البحث هو : كتاب أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ؛ حيث إن الشاهد البلاغي عنده يُعد تتبعًا لظاهرة بلاغية تؤيد تحليله ؛ ومن هنا كانت الدراسة التطبيقية في رياض شاعر له قدر عظيم ، وهو ابن المعتز تتناسب تناسبًا فنيًا بين الفن والعلم ؛ حيث روافد الذوق العالي متمثلًا في الإمام عبد القاهر بأسراره ، وابن المعتز بتشبيهاته . وشاعرنا ابن المعتز يُضرب بتشبيهاته المثل في الحسن ، والإحسان ، والجودة ، والخلابة ، والبراعة ؛ حيث تهيأ له من حسن التشبيه ما لم يتهيأ لغيره ممن لم يروا ما رآه ، ولم يعايشوا ما عايشه في ربيب الخلافة ، وعز الملك ، ومناعة السلطان ، فشعره صورة لحياته الخاصة من ناحية ، ولحياة الطبقة المترفة من ناحية أخرى ، فهو الأديب الساحر ، والشاعر الملهم .

وطبيعة الإمام وعبقريته الفذة في تعامله مع النصوص الشعرية لبناء القواعد البلاغية جعلته يرصد الشواهد في ذهنه ، فيختار منها ما يصل إلى أهدافه البعيدة

بأساليب متعددة ، ونماذج مختلفة ، وأنظمة حوارية متعددة ؛ حتى يصل بالقارئ إلى درجة الإقناع والإمتاع .

وعلى هذا فإن الغرض المرام من هذا البحث هو إثبات النظرة الكلية لشيخ البلاغيين في وضعه للقواعد البلاغية من خلال النظرة للعمل الفني لابن المعتز ، وإثبات مدى دقة اختياره ، وبراعة توظيفه لتلك الشواهد بما فيها من جزئيات ، وإثبات أن هذه الجزئيات الموجودة ما هي إلا كليات تخدم نظرات كلية في ذهن الإمام عبد القاهر التي راعى فيها حال القائل ، والمقول ؛ مما يستلزم استيعاب تلك النظرات الكلية للبناء التقعيدي ، وضبط ما بينها وبين الجزئيات من علاقة ، وكيفية استثمار هذه الجزئيات لضبط تلك القواعد ، وترسيخها في ذهن المتلقي .

ومن هنا جاء هذا البحث بعنوان : أثر النظرة الكلية للعمل الفني في بناء القاعدة البلاغية عند الإمام عبد القاهر (ابن المعتز أنموذجًا)

الأسباب الداعية لاختيار الموضوع :

١ ـ محاولة المشاركة ، ولو بعمل ضئيل في الحيلولة بين الأمة ، وبين ما من شأنه أن يكون سببًا في طمس هويتها ، والكيد لها .

٢ ـ الرغبة في التعرف على النسيج التقعيدي البلاغي ضمن النظرات الكلية والوقوف من خلالها على منهج الإمام عبد القاهر في اختيار الشواهد ، وحسن توظيفه لها ؛ لاستيعاب القاعدة البلاغية .

٣ ـ محاولة الارتقاء بالدراسات البلاغية من النظرة الجزئية إلى النظرات الكلية بحيث تتجلى قوة البلاغة العربية ، وقوة علمائها باعتبار أن هذا الباب قل البحث فيه .

منهج البحث .

تقتضي طبيعة البحث أن يسير وفق المنهج الآتي : .

١ ـ أن أتنقل بين كلام الشيخ عبد القاهر ، فآخذ قوله الذي يشير فيه إلى النظرة الكلية ، ودراستها دراسة تقوم على التحليل لمقولته وتفسيرها ، مع ربطها بشواهدها التي استدل بها بغية الوصول من التصور الجزئي لتلك الشواهد إلى النظر الكلي لينهض بالقاعدة التي يرمي إليها علمًا بأن إيراد تلك الشواهد مع تنوعها ، وتنوع أصحابها عند الإمام عبد القاهر ليس بالأمر السهل المنال .

٢ ـ لما كان البحث قائمًا على القاعدة البلاغية للتشبيه والتمثيل عند الإمام ، فإنني سوف أستند في كلامي على شواهد ابن المعتز التي ساقها الإمام ؛ لإثبات نظرته الكلية عن طريق استنطاق النصوص الشعرية التي استدل بها عند ابن المعتز ، سواء أكانت له خاصة ، أم مقارنة مع غيره ممن استشهد بهم الإمام ؛ لإيضاح فكرته والتأصيل لها ، بما يقتضي أن يكون تأسيسًا للقاعدة التي يرمي إليها .

٣ ـ محاولة الوصول إلى عقل الإمام ، وطريقة تفكيره لبناء قاعدته البلاغية ، وطريقة سعيه لتطبيقها ، وكذلك جهات الترابط بين نظرته الكلية ، والشواهد الجزئية بما يخدمها ، ويأصل لها .

خطة البحث :

المقدمة : وفيها أهم ما يتناوله البحث من منهج البحث ، وسبب اختياره وطريقة السير فيه، وخطة البحث .

التمهيد ، ويشتمل على محورين :

المحور الأول : مفهوم النظرة الكلية ، والعلاقة بينها وبين الجزئية .

المحور الثاني : من ملامح النظرات الكلية في تراثنا البلاغي .

الفصل الأول : النظرة الكلية في المذهب الفني للشاعر

ويشتمل على مبحثين : .

١ ـ المبحث الأول: ـ النظرة الكلية في المذهب الفني للشاعر خاصة .

٢ ـ المبحث الثاني:ـ النظرة الكلية في المذهب الفني للشاعر مقارنة مع غيره .

الفصل الثاني: النظرة الكلية من خلال مراعاة القيمة الفنية لشعر الشاعر، وتأثيرها في المتلقي

ويشتمل على مبحثين : .

١ ـ المبحث الأول: ـ النظرة الكلية من خلال تصور ما يقع في ذهن المخاطب من توهم فهم غير المراد .

٢ ـ المبحث الثاني: ـ النظرة الكلية من خلال مخاطبته لعقل المخاطب ووجدانه بما يعرضه الشاعر من مضمون .

التمهيد

ويشتمل على محورين : .

المحور الأول: مفهوم النظرة الكلية، والعلاقة بينها وبين الجزئية .

المحور الثاني: من ملامح النظرات الكلية في تراثنا البلاغي .

المحور الأول: مفهوم النظرة الكلية ، والعلاقة بينها وبين الجزئية .

بالنظر إلى مفهوم لفظة (الكلية) نجدها كما قال أبو هلال العسكري : " هُوَ الْإِحَاطَة بالأجزاء . . . وأصل الْكل من قَوْلك : تكلله ، أَي : أَحَاط بِهِ ، وَمِنْه الإكليل سمي بذلك ؛ لإحاطته بِالرَّأْسِ " [١] ، والكل عبارة عن مجموعة من الأجزاء، و"الجُزْء: ما يتركب منه شيء ، وأيضًا بعض الشيء، والجزئيُ منسوب إليه "[٢]

وفي التعريفات للجرجاني"الكل: في اللغة اسمٌ مجموع المعنى ، ولفظه واحد، وفي الاصطلاح: اسم لجملة مركبة من أجزاء."[٣]

ومن هنا يمكن القول: أن الكلي: عبارة عن مجموعة من جزئيات ، وبانتظام هذه الجزئيات في إطار واحد يمثل الكلي ، وليس معنى الاهتمام بالجزئيات إهمال الكليات ، فالاهتمام بالجزء ؛ لأنه بمجموعة يُكون الكلي .

وفي إضافة نظرة إلى الكلية، والنَّظَر: تأَمُّل الشَّيْءِ بِالْعَيْنِ"[٤] يمكن القول: إن النظرة الكلية ما هي إلا ناتج تأمل الأجزاء، وربطها ببعضها؛ لتعطينا في النهاية الصورة الكلية .

---

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري الفرق بين الكل والجمع ، ص ١٤٢ ، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر،(بدون تاريخ) .

(٢) التعريفات الفقهية ، تأليف : محمد عميم الإحسان المجددي البركتي ، ص ٧١ ، الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

(٣) التعريفات للجرجاني (ص: ١٨٦) المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان ، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م .

(٤) لسان العرب لابن منظور مادة (نظر) ، ط٣ : ١٤١٤ هـ .

المحور الثاني : من ملامح النظرات الكلية في تراثنا البلاغي .

لقد دأبت أقلام بعض الباحثين ، والمغرضين للعربية على وصف البلاغة العربية بالنظرة الجزئية من خلال معالجتهم لمسائلها ، دون العمل على النظرة الكلية للمسألة محل الدراسة ، وأنها بلاغة تجعل من البيت الشعري هدفًا لها ، ولا تتجاوز البيت إلى البيتين ، ولا الجملة إلى الجملتين . . . حتى انتهى القول فيما بينهم بأنها جهاز معطل لا بد من استبداله بعلم الأسلوبية ، أو إضافة بعض التعديلات عليه بالحذف تارة ، أو بالإضافة تارة أخرى . (١)

يقول حازم القرطاجني ردًا على هؤلاء المغرضين : "وتتضاعف صور العبارات بما يوقع في معانيها من تحديدات ترجع إلى ما تكون عليه في نفوسها، من كونها عامة ، أو خاصة ، كلية ، أو جزئية. وتتضاعف أيضًا بحسب الأحكام الواقعة في المعاني بعد تحديداتها، من نفي ، وإثبات ، ومساواة ، أو ترجيح ، أو غير ذلك، ومن جهة كيفيات المخاطبات في المعاني ، وكون ذلك يكون تأدية ، أو اقتضاء ، ونحو ذلك. وكل واحد من هذه له صيغ شتى يعبر بها عنه ، فمع أن المعاني تتضاعف صورها بحسب ما تقدم ، فإن هذه الأشياء . أيضًا . مما تتضاعف بها الصيغ والعبارات عن تلك المعاني . فيؤدي تنوع صور المعاني والعبارات بجميع ذلك ، وبما قد ذكر أيضًا في غير هذا الموضع من هذا الكتاب مما تتكاثر به صور المعاني- إلى وقوع المعاني على هيآت وصور يعز حصرها ، ولا يتأتى استقصاؤها لكثرتها ، وإنما يعرف صحتها من خللها ، أو حسنها من قبحها بالقوانين الكلية التي تنسحب أحكامها على صنف منها، ومن

---

(١) ينظر : الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، تأليف : أحمد الشايب ، ص ٣٨ ، ط : مكتبة نهضة مصر ٢٠٠٠ م ، وينظر : الأسلوب والأسلوبية ، تأليف : عبد السلام المسدي ، ص ٤٤ ، دار الكتب الجديدية . بيروت ، ط١: ٢٠٠٦ م ، وينظر : البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة ، تأليف : سعد مصلوح ، ص ٧٠ ، مجلس النشر العلمي الكويت، ط ١ : ١٩٧٣م .

ضروب بيانها. ويعلم من تلك الجمل كيفية التفصيل. ولا بد مع ذلك من الذوق الصحيح والفكر المائز بين ما يناسب ، وما لا يناسب ، وما يصح ، وما لا يصح بالاستناد إلى تلك القوانين على كل جهة من جهات الاعتبار في ضروب التناسب ، وغير ذلك مما يقصد تحسين الكلام به . "(١)

ثم يقول : " فكذلك في الشعراء أيضًا من يجعل أكثر أبياته ، وما تتضمنه الفصول بالجملة مخيلة ، ولا يستعمل الإقناع إلا في القليل منها، ومنهم من يستعمل الإقناع في كثير من الأبيات التي تتضمنها فصول القصيدة.

وقد كان أبو الطيب يعتمد هذا كثيرًا ، ويحسن وضع البيت الإقناعي من الأبيات المخيلة ؛ لأنه كان يُصدر الفصول بالأبيات المخيلة ، ثم يختمها ببيت إقناعي يعضد به ما قدم من التخييل ، ويجمع النفوس لاستقبال الأبيات المخيلة في الفصل التالي، فكان لكلامه أحسن موقع في النفوس بذلك. ويجب أن يعتمد مذهب أبي الطيب في ذلك، فإنه حسن." (٢)

ثم يردف قائلًا : " ومن القصائد ما يكون اعتماد الشاعر في فصولها على أن يضمنها معاني جزئية تكون مفهوماتها شخصية ، ومنها ما يقصد في فصولها أن تضمن المعاني الكلية التي مفهوماتها جنسية ، أو نوعية، ومنها ما يقصد في فصولها أن تكون المعاني المضمنة إياها مؤتلفة بين الجزئية ، والكلية. وهذا هو المذهب الذي يجب اعتماده لحسن موقع الكلام به من النفس. وأحسن ما يكون عليه هيأة الكلام في ذلك أن تصدر الفصول بالمعاني الجزئية ، وتردف بالمعاني الكلية على جهة تمثل بأمر عام على أمر خاص ، أو استدلال على الشيء بما هو أعم منه ، أو نحو ذلك." (٣)

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ، ص: ١١ ، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثالثة : ١٩٨٦م .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء (ص: ٩٦، ٩٧)

وقد طبق نظرته الكلية على قصيدة أبي الطيب المتنبي ، فقال :" وممن كان يحسن الاطراد في تسويم رؤوس الفصول على النحو الذي ذكرته أبو الطيب المتنبي، وذلك نحو قوله: (١)

أغالبُ فيك الشوقَ، والشوقُ أغلب ... وأعجبُ من ذا الهجر، والوصلُ أعجبُ

ثم يقول في نهاية حديثه " وهذا الفن من الصناعة ركن عظيم من أركان الصناعة النظمية لا يسمو إليه إلا من قويت مادته ، وفاق طبعه. وقد أرشدناه إلى السبيل المؤدية إلى حسن التصرف في ذلك. فمن ائتم بما رسمته في ذلك لم يضل إن شاء الله."(٢)

ومن علماء العصر الحديث يعد الشيخ أمين الخولي في كتابيه (فن القول) (٣) و (مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب)(٤) أول من دعا إلى ضرورة مجاوزة البلاغة إطار الجملة إلى النص كله .

والباحث في البلاغة العربية تستوقفه بعض الشواهد التي تبدو من النظرة الأولى أنها نظرة جزئية ، وهذا بدوره يؤدي إلى الإخلال في استنباط القاعدة البلاغية واللمحة الدلالية ؛ لأن النظرة الجزئية تجلب التناقض والخلل في التصور على عكس النظرة الكلية التي تمكن صاحبها من الإحاطة بجوانب الشيئ ولا تختل بين يديه النتائج ، قال العلامة السيوطي : " وقد نص العلماء أن العاميَ لو تعلم مسائل وعرفها لم يكن له أن

(١) ديوان المتنبي ، ص ٣٩ ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء (ص: ٩٦،٩٧ ، ٩٨)

(٣) ينظر : فن القول للدكتور أين الخولي ص ٨٧ ، قدم لهذه الطبعة أ د / صلاح فضل ، مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٩٦م .

(٤) ينظر: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ص ٢٠٣، طبعة دار المعرفة الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٦١ م.

يفتي بها ، إنما يفتي المتبحر في العلم العارف بتنزيل الوقائع الجزئية على الكليات المقررة في الكتب " [١]

وإذا نظرنا إلى الإمام عبد القاهر نجد أن مظاهر تلك النظرات التي على أساسها بنى أحكامه ، واستنبط قواعده البلاغية واضحة جلية في كتابيه الدلائل والأسرار ، ومن هذه المظاهر : .

١ . النظرة الكلية من خلال النظر في العمل الفني للشاعر .

٢ . النظرة الكلية من خلال الاعتماد على أقوال المحققين من العلماء السابقين

٣ . النظرة الكلية من خلال الاستقصاء من كلام الناس .

٤ . النظرة الكلية من خلال الاستقصاء من الأساليب العربية .

٥ . النظرة الكلية من خلال الاستقصاء والشمول من الدواودين .

وكان لهذه النظرات دورها في بناء القاعدة البلاغية ، وهذا البحث سيحاول جاهدًا الوقوف على أحد هذه المظاهر من خلال النظرة الكلية للعمل الفني عند ابن المعتز .

(١) الحاوي للفتاوي في الفقه وعلم التفسير والحديث واالأصول والنحو والإعراب وسائر الفنون للسيوطي ١ / ٣١٣ ، تحقيق : عبد اللطيف حسن عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية بيروت . لبنان ، ط١ : ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠م .

الفصل الأول

النظرة الكلية في المذهب الفني للشاعر

ويشتمل على مبحثين :

١ ـ المبحث الأول : ـ

النظرة الكلية في المذهب الفني للشاعر خاصة .

٢ ـ المبحث الثاني :ـ

النظرة الكلية في المذهب الفني للشاعر مقارنة مع غيره

المبحث الأول

النظرة الكلية في المذهب الفني للشاعر خاصة .

لقد وظَّف الإمام عبد القاهر من خلال نظرته الكلية بعض شواهد ابن المعتز في بناء ، وتأسيس بعض قواعده البلاغية ، ومن هذه القواعد ما جاء في:

- في تحديد مفهوم التمثيل، وبيان الفرق بينه، وبين التشبيه .

حيث استثمر الإمام عبد القاهر ما اشتهرت به أشعار ابن المعتز في تحديد مفهوم التمثيل ، وبناء الفرق بينه وبين التشبيه ، وأن مناط الفرق بينهما مبني على ملاحظة التأول في بيان وجه الشبه ، حيث أفرد الإمام التمثيل من التشبيه ، وجعله قسمًا منه ، ومازه عن التشبيه الصريح المباشر[١] ، ولقد وضع الإمام عبد القاهر حدًا فاصلًا بينهما ، فقال : " وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين ، فاعلم أن التشبيه عام ، والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا " [٢]

ولقد جعل الإمام العلاقة بين التشبيه ، والتمثيل علاقة قائمة بين عام وخاص ، فالتشبيه عام ، والتمثيل خاص ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيل ، ولقد هدته فطنته ، وبراعته في فهم النصوص الشعرية ، وتحليلها للوصول إلى الفرق بينهما ، واستثمر الإمام ما اشتهرت به أشعار ابن المعتز من أوصاف في بناء الفرق

---

(١) هذا ولقد تداخلت دلالة التشبيه بدلالة التمثيل لدى بعض اللغويين والبلاغيين القدماء، فجاؤوا على ذكرهما معاً مرادفين لشيء واحد؛ فكثير منهم لم يتلمس الفرق بينهما على ما بينه الإمام عبد القاهر، فعرفوا التمثيل على أنه تشبيه والتشبيه على أنه تمثيل، إلا إن الإمام عبد القاهر وضع حدًا فاصلًا بينهما.(ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير ٢ / ٩٣ ، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة)

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ، ص ٩٥، المحقق: محمود محمد شاكر ، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة ، ودار المدني بجدة ، الطبعة الأولى : ١٤١٢ هـ - ١٩٩١م .

بين التشبيه والتمثيل ، وأن مناط الفرق بينهما مبني على ملاحظة التأول في بيان وجه الشبه ، فيقول : " . . . وكذلك تقول ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها؛ لأنك تعنى تشبيهه المبصرات بعضها ببعض"(١) ، فقول الإمام عبد القاهر : " وكذلك تقول : "ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها " تدل على نظرة عامة وكلية لمنهج الشاعر في شعره ، وما اشتهر به ؛ ولعل السر في اختيار ابن المعتز للتعبير عن المحسوسات بالمبصرات ؛ باعتبار أنها أكثر ظهورًا في منهجه الشعري من ناحية ، وأدل على المراد من ناحية أخرى ، فهو من باب إطلاق الجزء ، وهي المبصرات ، وإرادة الكل ، وهي المحسوسات .

والناظر في شعر ابن المعتز سيجد ملامح الصور الحسية بتخيلاتها واضحة بأنواعها الثلاثة : استعارة ، وتشبيه ، وكناية ، وكان كثيرًا ما يعمد إلى التشبيه بأنواعه ، كالمقلوب ، والمتعدد ، والبليغ ، والمركب .

ثم يمضي الإمام عبد القاهر في إيراد شواهد ابن المعتز الدالة على التشبيه ، وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول يعده تشبيهًا غير تمثيلي ، فجاء بستة شواهد من شواهد ابن المعتز ، دون أن يعلق عليها ، فالشاهد الأول قوله :

كأن عيون النرجس الغضِ حولها ** مداهن در حشوهن عقيق(٢)

والبيت جاء في وصف النرجس ؛ حيث شبه زهر عيون النرجس بمداهن در حشوهن عقيق "ولا يخفى أن المشبه به هنا خيالي لا وجود له في الأعيان ، وأن عيون النرجس يحتمل أن تكون من إضافة المشبه به للمشبه ، إن أريد من (العيون) حقيقتها ، ومن (النرجس) الزهر ، وأن تكون (العيون) استعارة للزهر تصريحية

(١) الأسرار ، ص ٩٥ .

(٢) البيت لابن المعتز، (وهو غير موجود في ديوانه)

أصلية . إذا أريد بها الزهر، وبالنرجس النبات . " [١] . ووجه الشبه هنا مركب مؤلف من الهيئة المكونة من بياض قد التفَّ حوله سواد أو حمرة ، فالوجه هنا مركب حسي منتزع من متعدد ، ومع أن التشبيه قام على اعتبار تلك الأمور جميعها ، مع ما فيها من دقة وإحكام ، ومع أن تركيبه أضفى عليه روعة وإبداعًا ، إلا إن الإمام عده من التشبيه غير التمثلي ؛ لأن الوجه منتزع من أمور حسية ظاهرة لا تحتاج إلى تأول ، وحسن تدبر؛ للوصول إليها ، وهذا على خلاف ما عليه الخطيب [٢] والسكاكي [٣]،

وإذا نظرنا إلى مجموعة هذه الأبيات التي وصف فيها النرجس حين قال : .

وعجبنا الى الرّوض الذى طلّه النّدى ... وللصّبح فى ثوب الظّلام حريق

كأنّ عيون النرجس الغضّ حولها ... مداهن درّ حشوهنّ عقيق

اذا بلّهنّ القطر خلت دموعها ... بكاء جفون كحلهنّ خلوق[٤]

نجد أن ابن المعتز في هذه الصورة يحاول أن يعيشنا في بستان محفوف ، وقد طله الندى ، وحولنا عيون النرجس تحاكي مداهن الدر التي حشوها من العقيق ، فإذا نزل عليها قطر الندى بكت دموعه بكاء جفون كحلهن خلوق ، فابن المعتز في تصويره هنا يريد أن يصور مدى التعانق، والالتئام بين أجزاء تلك الصورة ، حيث يجنح إلى الجمال في صورة طريفة يحاول أن يضبطها ضبطًا محكمًا دقيقًا فانظر إلى صورة النرجس، وقد جعل له عيونًا على سبيل الاستعارة ، بل إنها لتعد عيونًا حقيقية تعبر

(١) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل . و التقديم والتأخير للأستاذ الشيخ عبد الهادي العدل مراجعة عبد السلام هارون ص ٥ ، الطبعة الثانية : ١٩٥٥م .

(٢) ينظر : الإيضاح للخطيب القزويني ٣ / ٢٠٢ المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي ، الناشر: دار الجيل – بيروت ، الطبعة: الثالثة (بدون تاريخ)

(٣) ينظر : مفتاح العلوم ص ٣٤٨ ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م

(٤) الخلوق: نوع من الطيب لونه أصغر. (لسان العرب ، مادة (خلق)

عن منظر غاية في الروعة والجمال ، وإنك لم تلبث أن تستغرق في الإحساس بهذا الجمال، وبهذا المنظر البديع لتلك العيون الجميلة . وهي مداهن من تبر . تجده سرعان ما يخلع عليك بوجه آخر غاية في الروعة والجمال ، وهو أن هذا المظهر البديع يتخلله مشهد آخر، وهو العقيق . فهي صورة تجعلك كأنك تلمسها وتشاهدها .

وهنا نلحظ أن الإمام بنظرته إلى شعر ابن المعتز اختار هذا الشاهد في تصوير النرجس دون غيره من الشواهد الواردة في هذا المعنى في شعره كقوله في وصف النرجس :

كأن أحداقَهَا في حسنِ صورتِهَا ... مداهنُ التبرِ في أوراقِ كافور

وإذا كان لكل وضع بهجته ، ولكل شكل مسرته عند ابن المعتز ، فالتشبيه الثاني أقل رقة وصفاء ، بل وأقل قيمة وأهمية من التشبيه الأول المختار ؛ إذ راعى ابن المعتز فيه أمرين ، وجمع بينهما في تلك الصورة ، وهما : الرقة والصفاء في اختيار الألفاظ المعبرة والمصورة لغرضه ، فاختار لفظة العيون ، ولفظة الغَضُّ : وهو الغَضُّ الطَّرِيُّ الَّذِي لَمْ يَتَغَيَّرْ [١] ، وكذلك اختار الدر ، واختار العقيق في التعبير ، فهي ألفاظ في مجموعها لها انسيابية ، وقبول ، بخلاق لفظة : أحداق ، والتبر ، والكافور ، كما أنه راعى إلى جانب الرقة ، والصفاء ، القيمة ، والأهمية ، فالعيون أهم وأكثر قيمة من الأحداق ، فالأحداق : مفردها الحدقة ، والحَدَقَةُ: السَّوَادُ الْمُسْتَدِيرُ وَسَطَ الْعَيْنِ، وَقِيلَ: هِيَ فِي الظَّاهِرِ سَوَادُ الْعَيْنِ ، وَفِي الْبَاطِنِ خَرَزَتها [٢] ، وهي تعد جزءًا من العين ، وهي بالطبع أقل أهمية من العين كلها. والدر أهم ، وأكثر قيمة من التبر ، وكذا العقيق ، وهو نوع من الأحجار الكريمة خَرَزٌ أَحْمَر تُتَّخذُ مِنْهُ الفُصوصُ [٣] ، وهو أكثر

(١) لسان العرب ، مادة (غضض)

(٢) المرجع السابق ، مادة (حدق)

(٣) تاج العروس للزبيدي (٢٦/ ١٦٧) ، المحقق: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية (بدون تاريخ)

قيمة وأهمية من الكافور . والكافورُ : نَبْتٌ طَيِّبُ الرِّيحِ يُشَبَّه بِالْكَافُورِ مِنَ النَّخْلِ[١]

وفي الشاهد الثاني والثالث نلحظ نظرة مختلفة من الإمام تختلف عن سابقتها ففي قوله:

وأرى الثريا في السماء كأنها ** قدم تبدد من ثياب حداد [٢]

شبه نجم الثريا في باطن السماء ، وهي تلوح وسط ظلام الليل بقدم بيضاء بدت من ثياب أسود، ووجه الشبه هو الهيئة المكونة من بياض ظهر في وسط سواد .

و سياق الأبيات التي ورد فيه هذا البيت قوله :

قم يا نديمي نصطبح بسواد قد كاد يبدو الصبح أو هو باد

وأرى الثريا في السماء كأنها قدم تبدت في ثياب حداد

فأجابني بيمينها فملأتها بزجاجة كالكوكب الوقاد[٣]

حيث يخاطب الشاعر نديمه الذي قضى معه ليلتهما يتعاقران الخمر ، حتى ظهر الصبح ، أو كاد يظهر ، وهو هنا يصور إحساسه بعد أن سيطر الخمر على عقله ، وأذهبه الإحساس بالجمال المحيط به ، حتى إنه يرى الحقائق والأمور على عكس طبيعتها ؛ حتى صيره الخمر يرى وقت مجيء الصبح وقت ثقيل على نفسه غير محبب إلى قلبه ، فيرى نجم الثريا في وقت الصباح بعد ذهاب الظلام بالقدم البيضاء الذي بدت من ثياب أسود شديد السواد ، فالتعبير يدل على مدى النظرة المتشائمة ، وإحساسه بإحاطة السواد والظلمة من كل ناحية ؛ حتى إنه من شدة تشاؤمه يرى نجم الثريا الذي هو عنوان الظهور والنور وسط السماء وقت الصبح . وهو أشد وأكثر الأوقات ظهورًا وضياء . بالقدم البيضاء التي بدت من ثياب أسود شديد السواد ، كما

---

(١) لسان العرب مادة (كفر)

(٢) ديوان ابن المعتز ، ص ، دار صادر بيروت ١٤٩هـ /٨١٦م ١٧٧.

(٣) المرجع السابق الصحيفة نفسها .

دل عليه التعبير بقوله : (حداد) ، فالإحساس بالسواد هو الإحساس المسيطر على نفسه حسيًا ومعنويًا ، والعلاج المحبب إلى نفسه ، والذي ارتضاه له صاحبه لإذهاب هذه الإحساس هو ملء الزجاجة بالخمر. الذي هو في الزجاجة بمثابة الكوكب الوقاد.

ونلحظ هنا علاقة الشاهد الثالث بسابقه في قوله :[١]

وتروم الثريا ** في الغروب مراما [٢]

كانكباب طمر ** كاد يلقى اللجاما [٣]

فقد شبه هنا ميل نجوم الثريا إلى الغروب باندفاع فرس خفيف بسرعة ، حتى كاد يلقي لجامه من شدة اندفاعه ، ووجه الشبه هو الهيئة المتحدة الشكل في الإنحدار ، ولا يخفى ما في قوله (تروم) من استعارة مكنية ، فقد شبه الثريا في إسراعها إلى جهة الغروب بإنسان له مرام وأمر مرغوب فيه .

والناظر في سياق هذه الأبيات يجدها على عكس سابقتها إذ يقول :

يا خليليَ هيا ** واسقياني المداما

وتروم الثريا ** في الغروب مراما

كانكباب طمر ** كاد يلقى اللجاما

فهذه الأبيات في سياقها يدور محورها على عكس سابقتها فهي تصور مدى الإحساس القلبي والتهيئ الذهني ومدى الفرحة والنشوة ؛ لإحساسهم بدنو قرب وقت الليل وذهاب نجم الثريا حيث وقت الظلام وقت الستر وتعاقر الخمر ، ومن هنا يستنهض همم نديمه وصاحبيه لسقياه الخمر ، فالموعد المحبب قد حان ، والتعبير

---

(١) ديوان ابن المعتز ، ص ٤٠٢ .

(٢) رام : رام الشيء يرومه رومة ومراما : طلبه (لسان العرب مادة (رام))

(٣) طمر : طَمَرَ البئرَ طَمْراً: دفَنها. وطَمرَ نَفْسه ، وطَمَرَ الشَّيْءَ: خَبَأَه حَيْثُ لَا يُدْرى (لسان العرب مادة (طمر))

يصور مدى شعوره وإحساسه بذهاب نجم الثريا وقت الغروب ووقعه على قلبه، فهو يسير إلى وقت الغروب سيرًا حسيسًا خفيفًا على قلبه ، وهذا الإحساس بالخفة في السير ليس ناتجًا عن البطء ، وإنما ناتج عن السرعة والاندفاع في السير المصحوب بالرغبة في الذهاب ، ولا شك أن هذه الألفاظ والتعبيرات تصور مدى حب معاقري الخمر لوقت الظلام حيث دخول الليل وكرههم لوقت الضياء والصبح بما يبرهون به على أنفسهم على مخالفتهم للفطرة السوية والطبيعة البشرية .

ومن هنا فاختيار الإمام عبد القاهر للشاهدين الثاني والثالث لم يك اعتباطًا وإنما كانت نظرة واعية وكلية بحيث تفي بغرض معين في ذهنه بإرادة الجمع بين شاهدين يجمعهما علاقة التقابل في المعنى المراد .

وإذا كانت الصورة السابقة تشتمل على صورة حركية نجد الإمام جاء بشاهد رابع خال من الصورة الحركية في قوله: [١]

قد انقضت دولة الصيام وقد ** بشر سقم الهلال بالعيد

يتلو الثريا كفاغر شره ** يفتح فاه لأكل عنقود

حيث شبه صورة الهلال في دقته ونحوله والثريا أمامه بصورة شره فاتح فاه لأكل عنقود من العنب ، والوجه هو صورة شئ مقوس يتبع شيئًا آخر مكونًا من أجزاء صغيرة بيضاء .

والشاهد الخامس قوله : [٢]

لمَّا تَعَرَّى أُفُقُ الضِّياءِ ... مثلَ ابتسام الشَّفَة اللَّمْياءِ[٣]

وَشمِطَتْ ذَوائِبُ الظَّلماءِ ... قُدْنا لِعين الوَحْش والظِّباء[٤]

---

(١) الديوان، ص ١٨١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٣) اللَّمَياء : سُمْرة الشفَتين واللِّثاتِ يُسْتحسن، وَقِيلَ: شَرْبة سَوادٍ (لسان العرب مادة (لما))

(٤) شمطت : شَمَطَ الشيءَ يَشْمِطُه شَمْطاً وأَشْمَطَه: خلَطه . . . ، وَيُقَالُ للصُّبْحِ: شَمِيطٌ مُوَلَّعٌ. وَقِيلَ للصبْح شَمِيطٌ لاخْتِلاطِ بياضِ النَّهَارِ بِسَوَادِ اللَّيْلِ (لسان العرب مادة (شمط)

داهيةً مَحذُورةَ اللِّقاءِ ... وَيَعْرِفُ الزَّجْر من الدُّعاءِ

بأُذُنٍ ساقطةِ الأرجاءِ ... كوَرْدِةِ السَّوْسَنة الشَّهباءِ

ذَا بُرْثُن كمِثْقَبِ الحذَّاءِ ... ومُقْلةٍ قليلةِ الأقْذاءِ [1]

صافية كقطرةٍ من ماءٍ** تنساب بين أكم الصحراء

ولقد جاءت هذه الأبيات في قصيدة بعنوان : (يا ناصر اليأس)، وهي مجموعة من التشبيهات المفردة المتعددة لابن المعتز في وصف الكلب يمكن إفراد كل وصف منها على حدة .

فشاعرنا يريد أن يعبر عن لحظة ظهور الفجر ، ولكنه سلك للتعبير عن هذا المعنى البسيط تلك الصورة بما فيها من ظلال جمالية ، وإيحاءات أسلوبية تجعل المعنى غير مألوف ، فقال في التشبيه الأول : (لمَّا تَعَرَّى أُفُقُ الضِّياءِ ... مثلَ ابتسام الشَّفَة اللَّمْياءِ) فالأسلوب بما فيه من استعارة وتشبيه رسم صورة تشخيصية، حيث بدا الأفق فيها وكأنه شخص ظهر عنه ثيابه التي يوحي إلينا التعبير هنا بأنها داكنة ، فبان بياض جسده ، فاللون الدكن وتعري الضياء عنه وسمرة الشفة الجميلة وابتسامها يوضحان لنا لون الفجر الذي تختلط فيه الدكنة والسمرة بالبياض ، كما أن التعري وابتسام الشفة اللمياء يوحيان أيضًا بما يحسه الشاعر في هذه اللحظة من سرور لهذا الفجر الندي الذي عزم فيه على الصيد ، وفي قوله : (وَشمِطَتْ ذَوائِبُ الظَّلماءِ ... قُدْنا لِعين الوَحْش والظِّباء) توكيد لألوان الفجر الذي يختلط فيه بياض الصبح بسواد الليل .

---

(١) برثن: البُرْثُنُ: مِخْلَبُ الأَسَد، وَقِيلَ: هُوَ للسبُع كالإِصْبَع للإِنسان (لسان العب مادة (برثن)) ، والحذاء : صانع الأحذية (لسان الاعرب مادة (حذو)) ، والمُقْلَة: شَحْمة الْعَيْنِ الَّتِي تَجْمَعُ السوادَ والبياضَ، وَقِيلَ: هِيَ سوادُها وبياضُها الَّذِي يَدُورُ كُلُّهُ فِي الْعَيْنِ، وَقِيلَ: هِيَ الحَدَقة؛ عَنْ كَرَاعٍ، وَقِيلَ: هِيَ الْعَيْنُ كلُّها، وإِنما سُمِّيَتْ مُقْلَة لأَنها تَرْمِي بِالنَّظَرِ (لسان العرب مادة (مقل)) ، وقوله قليلة الأقذاء : كناية عن صفاء العين (الديوان ، ص ٢٤)

ثم تأتي أول أوصاف الكلب بقوله : (داهيةً مَحذُورةَ اللِّقاءِ) فإذا كان الكلب المساعد في الصيد هذه أوصافه ، فكيف بقائده ؟ وفي هذا تعظيم لحال الصياد الخارج لصيد العين والظباء . وتابع أوصافه في قوله : (بأُذُنٍ ساقطةِ الأرجاءِ كوَرْدِةِ السَّوْسَنة الشَّهباءِ) ، أي شديدة السمع ، و (ذَا بُرْثُن كمِثْقَبِ الحذَّاءِ ، ومُقْلةٍ قليلةِ الأقْذاءِ ، كناية : عن صفاء العين ، ثم ارتقى في الوصف قائلًا : (صافية كقطرةٍ من ماءِ تنساب بين أكم الصحراء) . فهذه مجموعة من التشبيهات المفردة المتعددة التي لا تدرك بلاغتها إلا بعد تأول ، وطول نظر .

والناظر إلى هذه الإبداعات الشعرية التي اختارها الإمام نجد أنها جاءت كلها من تشبيهات مركبة عدا الشاهد الأخير ، وساقها الإمام متنوعة ، فالشاهد الأول جاء به مركبًا من هيئة حسية في الأرض ، ولكن بالنظر في تحقق هذه الصورة في المشبه به نراها صورة غير متحققة في الواقع ، وهي من خيال الشاعر ، والشاهد الثاني جاء به مركبًا من هيئة حسية في السماء ، ولكن صورة المشبه به ثابتة في الواقع ، ونراها بأعيننا أو بإحدى الحواس ، والشاهد الثالث جاء به مركبًا حسيًا من هيئة مكونه من أوصاف حركية ، والشاهد الرابع من هيئة مجردة من حركة ، والشاهد الخامس جاء به تشبيهًا مفردًا متعددًا خاليا من التركيب .

وفي تنوع الإمام في عرضه لتلك الشواهد يبين مدى إدراك الإمام لما بينها من فروق ، وما تحويه من دقائق، فاتخذ من هذه الشواهد أداة للنهوض بقاعدته التي يرمي إليها ، وكل هذا ليصل إلى الغاية المرجوة من الاستشهاد بها، وهي الوصول بتلميذه والدارسين إلى رسوخ القاعدة التي يرمي إليها في نفوسهم .

وهذا مما يؤكد أن نظرة الإمام لتلك الشواهد ، ودقة اختياره لها ، وبراعة توظيفه إياها لتفي بالمراد لم تكن نظرة عابرة ، وإنما كانت نظرة فاحصة ومدققة وشاملة لكل الشواهد التي وقعت عينه عليها من شعر ابن المعتز، ثم اختار منها ما يحقق مرامه ، وينهض بالقاعدة التي يرمي إليها، ويرسخها في ذهن تلامذته .

والإمام بسوقه لهذه الشواهد يخالف سابقيه مع إنه لم يتعرض لأحد منهم بتصريح أو تلميح، فالزمخشري في الكشاف[١] ، والخطيب في الإيضاح [٢] يريان أن التمثيل يشترط فيه التركيب؛ وبهذا يكون الإمام بسوقه للشواهد الخمسة الأول خالف هؤلاء ، وترك تلميذه يدرك بذكائه ما يرمي إليه .

وإذا كان العلامة السكاكي[٣] زاد في مفتاحه إلى التركيب اشتراط العقلية في وجه الشبه ، فبسوق الإمام للشاهد السادس والأخير خالفه في ذلك أيضًا .

ولا يعني هذا أن الإمام لم يلتفت إلى التركيب، ولم يبرز قيمته الجمالية في هذا الأمر ؛ إذ إنهم جعلوا معيار التشبيه التمثيلي هو التركيب، فما جاء مركبًا فهو تشبيه تمثيلي ، وما جاء غير مركب فهو تشبيه غير تمثيلي، وهذا مما يؤكد أن الإمام عبد القاهر قد " استعان في دراسته البلاغية بما كتب النقاد، وعلماء البلاغة، والإعجاز قبله يمده بالجديد فيها بذوق مثقف ، وحس لغوي دقيق، وقد قرأ الكثير من دواوين الشعر، وعكف على التراث الثقافي قبله، وهضمه، وتمثله، وانعكس ذلك واضحًا على ما كتبه . . . " [٤]

ويمضي الإمام في سوق شواهد ابن المعتز دون أن يعلق عليها ، حتى يصل إلى قول ابن المعتز الأخير الذي استشهد به لبيان التشبيه التمثيلي ، ويقف في البداية عند هذا الشاهد وقفة سريعة ، فيقول : " وما كان من هذا الجنس ، ولا تريد نحو قوله : [٥]

---

(١) ينظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، للزمخشري ١ / ٧٩ ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ

(٢) ينظر : الإيضاح ٣ / ٢٠٢ .

(٣) ينظر : مفتاح العلوم ١ / ٣٣٧ .

(٤) البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين الجرجاني وابن سنان الخفاجي ، تأليف / علام عبد العاطي غريب على ، ص ٣٠ (طبعة بيروت ، ط١ : ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م)

(٥) البيت منسوب لابن المعتز ، ولم أعثر عليه في ديوانه .

اصبر على مضض الحسو ** د فان صبرك قاتلة

فالنار تأكل نفسها ** إن لم تجد ما تأكله " [١]

ثم ينهي الإمام كلامه معللًا للسبب الذي جعله يصدر حكمه على شواهد ابن المعتز بكونها في باب التشبيه ، " وذلك إن إحسانه في النوع الأول أكثر ، وهو به أشهر"[٢] ، وليس هذا فحسب ، بل إنه بتعبيره هذا يعلل لسبب اختياره لشعر ابن المعتز دون غيره من الشعراء في إثبات هذه القضية .

(١) الأسرار ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) الأسرار ص ٩٧

المبحث الثاني

النظرة الكلية في المذهب الفني للشاعر مقارنة مع غيره.

نجد الإمام عبد القاهر يستثمر ما عند صالح بن عبد القدوس ، وابن المعتز من صفات شعرية اشتهرا بها تعينه على تجلية فكرته ، وتوضيح نظريته في بيان الفرق بين التشبيه والتمثيل ؛ ولهذا بعد أن استشهد بستة شواهد متعاقبة لابن المعتز جاءت على صفة التشبيه ؛ بما فيها من عدم التأول ، استخدم قول صالح بن عبد القدوس مشيرًا إلى ما فيه من تأول ، فيقول : "وكل ما لا يصح أن يسمى تمثيلًا ، فلفظ المثل لا يستعمل فيه أيضًا ، فلا يُقال ابن المعتز حسن الأمثال ، تريد به نحو الأبيات التي قدمتها ، وإنما يقال صالح بن عبد القدوس كثير الأمثال في شعره يراد نحو قوله : [1]

وان من أدبته في الصبا ** كالعود يسقى الماء في غرسه

حتى تراه مورقًا نادرًا ** بعد الذي أبصرت من يبسه

وما أشبهه مما الشبه فيه من قبيل ما يجرى فيه التأول " [2]

وهذه الأوصاف التي خلعها الإمام على شعر الشاعرين تدلل على أنها أحكام عامة صاغها الإمام في حق الشاعرين تبرهن على الاستقصاء ، والاستقراء لشعر الشاعرين ، ومن هنا أصدر أحكامًا عامة عليهما جاءت نتيجة لاستنباطات دقيقة على أساسها بنى نظرياته العامة ، وقواعده الكلية .

فالناظر ـ أيضًا ـ إلى شعر صالح بن عبد القدوس يلحظ علو النبرة التشاؤمية في شعره نتيجة لما حوته حياته من اضطرابات سياسية ، وخلافات عقدية . وشعره في

---

(١) ديوان صالح بن عبد القدوس ، ص ١٤٢ ، جمع وتحقيق : عبد الله الخطيب ، النار : دار منشورات البصرة ـ بغداد (بدون تاريخ) .

(٢) الأسرار ، ص ٩٧ .

مجمله أمثال وحكم ومواعظ متأثرًا بما خلفته حياته من عبر وتجارب [1]، هذا ومما يبرهن على موهبة الإمام الفذة ، وعبقريته النادرة أنه اختار شعر شاعرين جمعهما عصر واحد ، ولكنهما اختلفا في ميولهما الشعرية ، فهذا مغرم بالتشبيهات الحسية ، وذاك بالتشبيهات العقلية ، ومن هنا تدق الموازنة بينهما وتعظم في إدراك دقة صنيعهما ، وبديع شعرهما ، هذا فضلًا على أنه يفتح مجالًا خصبًا للدراسة في شعر الشاعرين ، وغيرهما ، مما استشهد بشعرهما الإمام لبناء نظريات عامة ، وقواعد كلية .

والإمام عبد القاهر بالشاهد الأخير يشير إلى الأمور العقلية الغريزية أي : الثابتة في الطباع ، والنفوس ، كالأخلاق ، والغرائز ؛ لأن هذه الأشياء لما شاعت وظهرت للجميع افتقدت ما فيها من حاجة إلى إبداع وتأمل ؛ لقربها من دائرة المحسوسات بما حدث فيها من جلاء وظهور ، وبهذا يريد الإمام أن يشير إلى شرطين أساسيين في حصول التمثيل في التشبيه هما : العقلية ، وغير الغريزية . ولا شك أن هذا الضابط للإمام يسمح بدخول التشبيه على كافه ألوانه وصوره مفردًا ، ومركبًا ، ومتعددًا .

---

(١) ينظر : طبقات الشعراء لابن المعتز ١ / ٨٩ ، ٩٠ ، المحقق: عبد الستار أحمد فراج ، الناشر: دار المعارف – القاهرة الطبعة: الثالثة (بدون تاريخ) ، و الكامل في ضعفاء الرجال ، المؤلف: أبو أحمد بن عدي الجرجاني (٥ / ١١١) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض ، شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة ، الناشر: الكتب العلمية – بيروت-لبنان (بدون تاريخ) ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ١٩٩٧م ، وينظر : تاريخ بغداد مؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي ١٠ / ٤١٣ ، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف ، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢ م ، وينظر : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، (٣٣ / ٣٤٩ .) ، المحقق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع ، دار النشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق – سوريا ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٤م .

وكأن الإمام عبد القاهر بهذه الوقفة السريعة الخاطفة عند هذا الشاهد [١] ، يريد أن

يريد أن يقول : إن الوصول إلى الفرق بين التشبيه والتمثيل أمر يحتاج إلى التحقيق ومعاودة النظر المرة بعد الأخرى ، وهذا ما أكد عليه في نهاية حديثه في هذا الباب .

وبهذا يكون الإمام عبد القاهر بشواهده التي ساقها قد وضع يده على الفرق بين التشبيه والتمثيل، وترك الشواهد للقارئ يستنبط ما فيها من لمحات تهديه إلى هذا الفرق، وأن هذا الفرق مبني على ملاحظة وجه الشبه بين الطرفين المشبه والمشبه به، فإن كان وجه الشبه حسيًا، فالأمر فيه واضح لا يحتاج إلى كد للذهن، كما ساق أمثلة ابن المعتز السابقة وترك ما فيها من بيان لوجه الشبه إلى ذكاء القارئ وفطنته ، أما إذا كان وجه الشبه عقليًا يُشكل أحيانًا على القارئ والمتلقي ، فلا بد فيه من إعمال للعقل في محاولة فهمه وتأويله،" وعبد القاهر حينما أراد أن يفرق بين التشبيه والتمثيل نظر إلى وجه الشبه ، فوجد أن الشبه تارة يكون عقليًا، وتارة يكون حسيًا، والعقلي قد يكون ظاهرًا لا يحتاج إلى تأويل، وقد لا يكون كذلك، أي يحتاج إلى تأويل " [٢]

ثم بعد هذا التحليل الرائع لهذا النموذج من شعر ابن المعتز لإدراك ما فيه من تمثيل ؛ حتى يصل بالقارئ إلى ما يريد تقريره كاملًا من وجوب ملاحظة الفرق بين التشبيه والتمثيل ، وأن بيان الفرق بينهما يحتاج إلى صبر ، وتحقيق ، وتتبع لحقائق الأمور وبيان مظانها المختلفة ، نراه يقول : " فقد تبين بهذه الجملة وجه الفرق بين

---

(١) أعني قول ابن المعتز : (اصبر على مضض الحسو ** د فان صبرك قاتلة) (فالنار تأكل نفسها ** إن لم تجد ما تأكله)

(٢) البلاغة فنونها وأفنانها . علم البيان ، تأليف / عباس فضل عباس ، ص ٥٨ ، ط١٠ : طبعة دار الفرقان . عمان (بدون تاريخ)

التشبيه والتمثيل ، وفي تتبع ما أجملت من أمرهما وسلوك طريق التحقيق فيهما ضرب من القول ينشط له من يأنس بالحقائق" [١]

ففي تلك الجملة الخبرية بيان لما يريده الإمام من تلاميذه والدارسين للوصول إلى بناء القواعد وتأسيس النظريات العامة والكلية ، ففي قوله : (تتبع . . .) إشارة واضحة إلى منهج الاستقصاء ، وأن هذا المنهج يحتاج إلى تحقيق وتدقيق وفلي للشواهد ؛ حتى تكون النتائج واضحة ومقبولة ،" فالصور الإجمالية التي تؤخذ من القواعد ، إن لم تؤيدها الصور التفصيلية التي تستفاد من النماذج ، لا تتمثل في الأذهان حق التمثل ، ولا تتجلى حقيقتها تمام الانجلاء " [٢]

ولم يترك الإمام الكلام على عمومه ، بل وضع ما يحث به تلامذته على التحفيز بأن الوصول إلى الحقائق شيء تنشط له النفس وبه تسر ، وفي سوقه لتلك الصياغات الأدبية بعد سرد نماذجه الشعرية إشارة إلى سر اختياره وترتيبه لها ، وأن لكل شاهد خصوصياته وامتيازته .

(١) الأسرار ، ص ٩٧ .

(٢) علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع تأليف / أحمد مصطفى المراغي ، ص ٨ ، الناشر : دار الكتب العلمية بيروت ط٤ : ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م .

الفصل الثاني

النظرة الكلية من خلال مراعاة القيمة الفنية لشعر الشاعر، وتأثيرها في المتلقي .

ويشتمل على مبحثين :-

١ - المبحث الأول : -

النظرة الكلية من خلال تصور ما يقع في ذهن المخاطب من توهم فهم غير المراد .

٢ - المبحث الثاني : -

النظرة الكلية من خلال مخاطبته لعقل المخاطب ووجدانه بما يعرضه الشاعر من مضمون .

١ ـ المبحث الأول

النظرة الكلية من خلال تصور ما يقع في ذهن المخاطب من توهم فهم غير المراد .

الموضع الأول : في الحديث عن وجه الشبه .

الناظر في كلام الإمام عبد القاهر أثناء حديثه عن وجه الشبه يجده استشهد بقول ابن المعتز :[١]

وكأن البرق مصحف قار ** فانطباقًا مرة وانفتاحًا

حيث ذكر الإمام عبد القاهر هذا الشاهد في معرض حديثه عن شرط التأليف بين المتباعدين في وجه الشبه، ووجد الإمام عبد القاهر في بيت ابن المعتز السابق ما يُظهر مراده في هذا الأمر من ضرورة التأليف بين المتباعدين حتى يكون الشبه مقبولًا .

وقبل أن يتعرض الإمام للشواهد الشعرية التي يوضح بها نظريته وقف مع هذه القضية ، وبيَّن شرط التأليف بين المتباعدين ؛ حتى لا يظن ظان أن الجميع مقبول على إطلاقه من غير شرط ، ولا قيد ، فليس الحذق في التشبيه أن تضع أداة التشبيه بين أمرين متباعدين ، وليس هناك ملائمة بينهما ، وإلا لكان عملك غير مقبول .

ولقد كان مبنى الإمام في نظريته هذه على الإيهام ، وأنه قد يتوهم المنشئ للتشبيه ذلك ؛ ولهذا كانت عباراته كلها الغرض منها هو إزالة هذا الإيهام ؛ إذ لو نظرت إلى الجمل التي صاغها الإمام تجد بأن الألفاظ قد أعيدت بمعناها، وكلها تركز في معنى واحد بما تحمله من ألفاظ وعبارات مختلفة ؛ لتحقق نفس الفائدة .

وأول ما بدأ به كلامه ـ الذي مهد به لهذه القضية ـ بما يُذهب هذا الإيهام ، هو محاولة إثارة انتباه السامع ، ومعاودة نشاطه من خلال الأساليب التي يضعها ، والتي

---

(١) ديوان ابن المعتز ، ص ١٤١ .

تكون بمثابة العناوين ، والعلامات والإشارات التي تهدي القارئ إلى الكشف عما يريد ، وأول ما يطالعنا به الإمام هو قوله : "واعلم أنى لست أقول لك : أنك متى ألفت الشيء ببعيد عنه في الجنس على الجملة ، فقد أصبت وأحسنت ، ولكن أقوله بعد تقييد وبعد شرط ، وهو أن تصيب بين المختلفين في الجنس ، وفي ظاهر الأمر شبهًا صحيحًا معقولًا ، وتجد للملائمة والتأليف السوي بينهما مذهبًا ، وإليهما سبيلًا ، وحتى يكون ائتلافهما الذي يوجب تشبيهك من حيث العقل والحدس في وضوح اختلافهما من حيث العين والحِس ، فإما أن تستكره الوصف ، وتروم أن تصوره حيث لا يتصور فلا ؛ لأنك تكون في ذلك بمنزلة الصانع الأخرق يضع في تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه ، حتى تخرج الصورة مضطربة ، وتجيء فيها نتو ، ويكون للعين عنها من تفاوتها نُبو " (١)

ثم بين الإمام أن الحذق ليس أن تضع أداة التشبيه بين أمرين متباعدين، وليس هناك علاقة بينهما ، وإلا لكان هذا ضربًا من التوهم ، فقال : " وإنما قيل : شبهت ولا تعنى في كونك مشبهًا أن تذكر حرف التشبيه ، أو تستعير إنما تكون مشبهًا بالحقيقة بأن ترى الشبه وتبينه ولا يمكنك بيان ما لا يكون وتمثيل ما لا تتمثله الأوهام والظنون"(٢).

ثم بين الإمام كيف يقع الوهم في ذهن المنشئ ، وكيف يزيل هذا الوهم ، فقال : " ولم أرد بقولي إن الحذق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس أنك تقدر أن تُحدث هناك مشابهة ليس لها أصل في العقل ، وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها ، فإذا تغلغل فكرك فأدركها ، فقد استحققت الفضل ، ولذلك يشبه المدقق في المعاني بالغائص على الدر ، ووِزان ذلك أن القطع التي يجيء من

(١) الأسرار ، ص ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

مجموعها صورة الشنف[١] والخاتم ؛ أو غيرهما من الصور المركبة من أجزاء مختلفة الشكل لو لم يكن بينها تناسب أمكنَ ذلك التناسب أن يلائم بينها الملائمة المخصوصة ويوصل الوصل الخاص لم يكن ليحصل لك من تأليفها الصورة المقصودة ، ألا ترى إنك لو جئت بأجزاء مخالفة لها في الشكل ، ثم أردتها على أن تصير إلى الصورة التي كانت من تلك الأولى طلبت ما يستحيل ؟ فإنما استحققت الأجرة على الغوص ، وإخراج الدر لا أن الدر كان بك واكتسى شرفه من جهتك ، ولكن لما كان الوصول إليه صعبًا وطلبه عسيرًا ، ثم رُزقت ذلك وجب أن يُجزل لك ، ويُكبر صنيعُك " [٢]

ثم علق الإمام على ذلك بقوله : " ألا ترى أن التشبيه الصريح إذا وقع بين شيئين متباعدين في الجنس ، ثم لطُف وحسن لم يكن ذلك اللطف وذلك الحُسن إلا لاتفاقٍ كان ثابتًا بين المشبه والمشبه به من الجهة التى بها شبهت إلا أنه كان خفيًا لا ينجلى إلا بعد التألق في استحضار الصور ، وتذكرها ، وعرض بعضها على بعض ، والتقاط النكتة المقصودة منها، وتجريدها من سائر ما يتصل بها نحو أن يشبه الشىء بالشىء في هيئة الحركة ، فتطلب الوفاق بين الهيئة والهيئة مجردة من الجسم ، وسائر ما فيه من اللون ، وغيره من الأوصاف . [٣]

ثم حاول أن يطبق ذلك على كلام ابن المعتز فقال : كما فعل ابن المعتز في تشبيه البرق ، حيث قال :

وكأن البرق مصحف قار ** فانطباقا مرة وانفتاحا

لم ينظر من جميع أوصاف البرق ومعانيه إلا إلى الهيئة التى تجدها العين له عن انبساط يعقبه انقباض وانتشار يتلوه انضمام ، ثم فلى في نفسه عن هيآت الحركات ؛ لينظر أيها أشبه بها ، فأصاب ذلك فيما يفعله القارىء من الحركة الخاصة في

(١) الشنف : الفرط الأعلى يكون في الأذن (ينظر : لسان العرب ، مادة : شنف)
(٢) الأسرار، ص ١٥٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

المصحف ، إذا جعل يفتحه مرة ويطبقه أخرى " [١] ، فقد شبه ابن المعتز هيئة حركة البرق عند ظهوره واختفائه وتكرار ذلك بهيئة حركة المصحف في حالتي الانطباق والانفتاح إلى جهتين في كل حالة إلى جهة .

وهنا نلحظ مدى براعة الإمام في ملاحظة الإبداع بين الشاعر والمتلقي ، وما يحققه المبدع في نفسية المتلقى ، ومدى قدرة المتلقي على إدراك ما يرمي إليه الشاعر في تشبيهه ، فقال : " ولم يكن إعجاب هذا التشبيه لك وإيناسه إياك ؛ لأن الشيئين مختلفان في الجنس أشد الاختلاف فقط ، بل لأنه حصل بإزاء الاختلاف اتفاق كأحسن ما يكون وأتمه ، فبمجموع الأمرين شدة ائتلاف في شدة اختلاف حلا وحسن وراق وفتن" [٢]

وهنا نلحظ أن الإمام حينما عرض شاهد ابن المعتز وغيره من الشعراء عرض ما يستحسن من شعرهم في التقريب بين المتباعدات ، ولم يتعرض لما يستقبح منه ، ولعل هذا لأمرين : .

أحدهما : أن مبنى كلام الشيخ على التوهم عند المنشئ ، فاكتفى بذكر ما يدفع هذا التوهم .

والآخر: أن الشيخ يعول كثيرًا على فهم المخاطب لمراده ، وحسه الشعوري بما يحس به الإمام .

وفي حديث الإمام عن شرط التأليف بين المتباعدات لم يكتف بما نص عليه باللفظ الصريح عن شرط التأليف بينهما ، بل إنه تحدث عن الآثار النفسية التي يجلبها المنشئ لنفسه ولصنيعه لو وافق إبداعه هذا الشرط .

---

(١) الأسرار ، ص ١٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

وإذا نظرنا إلى كلام الإمام بعد وضعه لهذا الشرط وإلى الآثار التي يجلبها المنشىء والمبدع لنفسه نجد أن الإمام جعل هذا الشرط مبنيًا على القبول النفسي ، ومن هنا قال : " فوجه الحذق في شاهد ابن المعتز أنه نظر إلى البرق ، فوجد له أوصافًا كثيرة من اللمع والإشراق وسرعة الزوال ، فلم يعن بذلك ، وإنما بالهيئة التي تراها العين من انبساط يعقبه انقباض ، وتوالي ذلك وتتابعه ، وأراد أن يجد لهذه الهيئة نظيرًا يشبهها، فأخذ يفكر فيما عرض له من هيئات الحركة ، وما شاهده منها ، فاهتدى إلى ما يفعله القارىء إذا جعل يفتح المصحف ويطبقه مرة بعد أخرى ، فليس الإعجاب بهذا التشبيه؛ لأن الشيئين مختلفان في الجنس فقط ، بل لأنه حصل مع شدة الاختلاف شدة ائتلاف "[1] ، " وليس معنى الحذق في إيجاد ائتلاف بين المختلفات ، وطرافة الجمع بين المتنافرات أنك تخترع مشابهة لا وجود لها ، بل معنى ذلك أن هناك مشابهات موجودة، لكنها كانت خفية يدق المسلك إليها ، فإذا تغلغل فكرك إليها فأدركها ، دل ذلك على حذقك وصفاء ذهنك "[2]

ومن هنا ختم الإمام كلامه بالآثار الناتجة عن فهم مرام الشاعر والاستيعاب له بتلك الأوصاف الجامعة في قوله : " حلا وحسن وراق وفتن "

وبهذا يكون كلام الإمام يوجه لبعض الأمور عند استنباط القاعدة منها :

١ ـ أن ما تم اعتماده من شاهد ابن المعتز كاف لإيضاح الفكرة وتأصيلها .

٢ ـ أن نظرة الإمام الجزئية لهذا الشاهد تعد فكرة يطمأن لها المتلقي بتتبع موقف المعنى معها ، فإذا حصل بالاستقراء والنظرة الكلية لمثلها من شواهد ما حصل بهذا الشاهد من اطمئنان واستئناس ، فقد حصل الغرض المرام من تلك النظرة الجزئية ؛ لأن

---

(١) دراسة تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير، تأليف / عبد الهادي العدل ، ص ١٤٠، تحقيق : عبد السلام سرحان ، الطبعة الثانية (بدون تاريخ) .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

النظرة الكلية هي عبارة عن فكرة يتوصل لها عن طريق تتبع النظرات الجزئية لشواهد معينة .

٣ ـ أن النظرة الكلية لاستنباط القاعدة البلاغية تتطلب أحيانًا الحرص على تتبع مواطن الإيهام التي يمكن أن تقع في ذهن القائل ، والحرص على إزالتها ، واستثمار النظرة إليها لبناء أحكام عامة كلية وقواعد بلاغية .

وبهذا يكون الإمام عبد القاهر بشاهد واحد أسس لقاعدة كلية انتهت بصاحبها إلى الاطمئنان لتلك القاعدة البلاغية ، مع ما يمكن أن يندرج تحتها من أمثلة وشواهد ، وحديثه عن هذا الشاهد ما هو إلا تقرير لنظرة كلية في ذهنه وتقرير لقاعدة بلاغية كليه في عقله ؛ لأن غرضه هو إيصال الفكرة كلها عامة كلية ، كما وقعت في ذهنه .

ولعل هذه الاعتبارات يؤكدها ويبرهن عليها كلام الإمام عبد القاهر حين استشهد ببيت ابن المعتز السابق في معرض الحديث عن المعنى الجامع لسبب غرابة التشبيه ، حيث قال : " اعلم أن معرفة الشيء من طريق الجملة غير معرفته من طريق التفصيل فنحن وإن كنا لا يُشكل علينا الفرق بين التشبيه الغريب وغير الغريب إذا سمعنا بهما ، فإن لوضع القوانين وبيان التقسيم في كل شيء وتهيئة العبارة في الفروق فائدة لا يُنكرها المميز ، ولا يخفي أن ذلك أتم للغرض وأشفى للنفس .

والمعنى الجامع في سبب الغرابة : أن يكون الشبه المقصود من الشيء مما لا يتسرع إليه الخاطر ، ولا يقع في الوهم عند بديهة النظر إلى نظيره الذي يشبه به ، بل بعد تثبت وتذكر وفكر للنفس في الصور التي تعرفها وتحريك للوهم في استعراض ذلك واستحضار ما غاب منه .

بيان ذلك: أنك كما ترى الشمس ويجرى في خاطرك استدارتها ونورها تقع في قلبك المرآة المجلوة ويتراءى لك الشبه منها فيها ، وكذلك إذا نظرت إلى الوشى منشورا وتطلبت لحسنه ونقشه واختلاف الأصباغ فيه شبهًا حضرك ذكر الروض ممطورًا مفترًا عن أزهاره متبسمًا عن أنواره ، وكذلك إذا نظرت إلى السيف الصقيل عند سلة وبريق

متنه لم يتباعد عنك أن تذكر انعقاق البرق ، وإن كان هذا أقل ظهورًا من الأول ، وعلى هذا القياس ، ولكنك تعلم أن خاطرك لا يُسرعُ إلى تشبيه الشمس بالمرآة في كف الأشل كقوله :

(والشمس كالمرآة في كف الأشل) هذا الإسراع ولا قريبًا منه .

ولا إلى تشبيه البرق بإصبع السارق كقول كشاجم [١] :

أرقت أم نمت لضوء بارق ** مؤتلقا مثل الفؤاد الخافق

كأنه إصبع كف السارق **

وكقول ابن بابك [٢] :

ونضنض في حصنى سمائك بارق ** له جذوة من زبرج اللاذ لامعه

تعوج في أعلى السحاب كأنها ** بنان يد من كلة اللاذ ضارعه [٣]

---

(١) كَشَاجِمُ أَبُو نَصْرٍ مَحْمُوْدُ بنُ حُسَيْنٍ ، شَاعِرُ زَمَانِهِ، يُذكرُ مَعَ المُتَنَبِّي. ، وَهُوَ: أَبُو نَصْرٍ مَحْمُوْدُ بنُ حُسَيْنٍ، لَهُ ذكرٌ فِي (تَارِيْخِ دِمَشْقَ) .، رَوَى عَنْهُ: الحُسَيْنُ بنُ عُثْمَانَ الخِرَقِيُّ وَغَيْرُهُ. ، (ديوَانُهُ) مَشْهُوْرٌ. ، وَكَانَ شَاعِراً، كَاتِباً، منجِّماً، فعُمِلَ مِنْ حروفِ ذَلِكَ لَهُ اللَّقبُ (سير أعلام النبلاء ط الرسالة ، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (١٦/ ٢٨٥ ، ٢٨٦) ، الناشر: دار الحديث- القاهرة ، الطبعة: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م

(٢) ابن بابك : أبو القاسم عبد الصمد بن منصور بن الحسن بابك الشاعر المشهور؛ أحد الشعراء المجيدين المكثرين، رأيت ديوانه في ثلاث مجلدات، وله أسلوب رائق في نظم الشعر، وجاب البلاد، ولقي الرؤساء، ومدحهم، وأجزلوا جائزته وكانت وفاته في سنة عشر وأربعمائة ببغداد، رحمه الله تعالى. و فيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (٣/ ١٩٦) ، المحقق: إحسان عباس الناشر: دار صادر – بيروت) (بدون تاريخ)

(٣) نضض: النَّضُّ: نَضِيضُ الْمَاءِ كَمَا يَخرج مِنْ حَجَرٍ. نَضَّ الماءُ يَنِضُّ نَضّاً ونَضِيضاً: سالَ، وَقِيلَ: سالَ قَلِيلًا قَلِيلًا، وَقِيلَ: خَرَجَ رَشْحاً؛ وَبِئْرٌ نَضُوضٌ إِذا كَانَ مَاؤُهَا يَخْرُجُ كَذَلِكَ (لسان العرب مادة (نضض)، واللاذ: الحرير.(ينظر: المخصص ، لابن سيده ١ / ٣٨٣ ، المحقق: خليل إبراهم جفال ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م)

ولا إلى تشبيه البرق في انبساطه وانقباضه والتماعه وائتلاقه بانفتاح المصحف وانطباقه فيما مضى من قول ابن المعتز :

وكأن البرق مصحف قار ** فانطباقا مرة وانفتاحا

ولا إلى تشبيه سطور الكتاب بأغصان الشوك في قوله:

بشكل يأخذ الحرف المحلّى ... كأن سطوره أغصان شوك

ولا إلى تشبيه الشّقيق بأعلام ياقوت على رماح زبرجد، كقول الصّنوبريّ [1]:

وكأنّ محمرّ الشقي ... ق إذا تصوّب أو تصعّد

أعلام ياقوت نشر ... ن على رماح من زبرجد[2]

ولا إلى تشبيه النجوم طالعات في السماء مفترقات مؤتلفات في أديمها، وقد مازجت زرقة لونها بياض نورها، بدرّ منثور على بساط أزرق، كقول أبي طالب

(١) أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار أبو بكر الضبي المعروف بالصنوبري الحلبي شاعر محسن أكثر أشعاره في وصف الرياض والأنوار قدم دمشق وله أشعار في وصفها ووصف منتزهاتها حكى عن علي بن سليمان الأخفش قرأت بخط أبي الحسن رشأ بن نظيف المقرئ وأنبأني أبو القاسم علي بن إبراهيم وأبو الوحش سبيع بن المسلم عن رشأ أخبرني أبو الحسن عبد الرحمن بن أحمد بن معاذ الشيخ الصالح بمصر أنا أبو العباس عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله الحلبي الصفري ، قال وسألت أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الصنوبري ما السبب الذي من أجله نسب جده إلى الصنوبر حتى صار معروفا به فقال لي كان جدي الحسن بن مرار صاحب بيت حكمة من بيوت حكم المأمون فجرت له بين يديه مناظرة فاستحسن كلامه وحدة مزاجه ، فقال له إنك لصنوبري الشكل يريد بذلك الذكاء وحدة المزاج (تاريخ دمشق لابن عساكر (٥/ ٢٣٩) المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع عام النشر: ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م.

(٢) أسرار البلاغة فى علم البيان (ص: ١٢٠) البيتان للصنوبري، وهما في مفتاح العلوم ص ٤٦١، وأورده العلوي في الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ١/ ٢٧٥.الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت ،الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

الرّقّي[١] :

وكأنّ أجرام النّجوم لوامعًا ... درر نثرن على بساط أزرق

ولا ما جرى في هذا السبيل، وكان من هذا القبيل."[٢]

يقول الإمام بعد ذكره لهذه الأبيات : " بل تعلم أن الذي سبقك إلى أشباه هذه التشبيهات لم يسبق إلى مدى قريب، بل أحرز غاية لا ينالها غير الجواد، وقرطس في هدف لا يصاب إلّا بعد الاحتفال والاجتهاد." [٣]

وقد دلت هذه العبارة أن مثل هذا النوع من الاجتهاد إنما يكثر في عصور الصنعة ويقل في عصور الطبع .

وبمراجعة نسبة الشواهد السابقة تؤكد هذا الكلام ، حيث ساق ستة شواهد من العصر العباسي . ولعل القارىء لنص الشيخ عبد القاهر، وإكثاره من هذه الاستشهادات ، وهم من مشاهير العصر العباسي يدلك على أن الأمر يتعلق بأصحاب هذه الأبيات ، وخصائهم الفنية في شعرهم ، فلابن المعتز مكانته الشعرية المعروفة ، ويظهر بالتتبع والاستقصاء لتلك النماذج الذي أوردها وأصحابها ، وهم كانوا ممن عاصروا ابن المعتز ، ولا يستبعد أن يكون لهم محاورات ومساجلات مع ابن المعتز ، ولذلك تشابهت إنتاجتهم الشعرية حسبما ورد عند الشيخ ، وكثر استشهاده بشعرهم في هذا الباب ، فضلًا عن ما نجده في كتب الأدب والنقد وفنون البلاغة من مكان بارز

---

(١) أَبُو طَالب الرقي : قال عنه أبو منصور الثعالبي : لم أجد ذكره إِلَّا عِنْد أبي بكر الْخَوَارِزْمِيّ وسمعته يَقُول إِنَّه أحد المقلين الْمُحْسِنِينَ الَّذين يطبقون الْمفصل فِي أغراضهم وينظمون الدّرّ الْمفصل فِي معانيهم وَأَلْفَاظهمْ (ينظر : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (١/ ٣٤٦) ،المحقق: د. مفيد محمد قمحية ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت/لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م

(٢) البيت لأبي طالب الرّقّي، وهو في الإيضاح ، ص ٢١٤، ٢٢٨، ٢٣٦، ومفتاح العلوم ص ٤٤٤ .

(٣) ينظر : الاسرار ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

للاستشهاد بهذه الأبيات ، وهي في قمة التشبيه بأنواعه مع ما فيها من دقة الإشارة إلى المعاني الطريفة .

وبهذا يكون الامام عبد القاهر قد عول على شاهد واحد لابن المعتز ، واستثمره لتوضيح قاعدته البلاغية بناء على ما يقع في ذهن القائل باستحضار ما غاب عن ذهنه ، وإزالة اللبس والوهم ، وهذا مما يدل على مدى استيعاب الإمام للنسيج الدلالي للشاهد ، وما يحيطه من جزئيات ، بحيث يقلب نظره فيما يحويه هذا الشاهد من حلول لينهض بقاعدته التي يرمي إليها ، ثم يختار المناسب له من شواهد أخرى ، وهذا يعد مظهرًا من مظاهر النظرة الكلية للشاهد الواحد .

فالإمام عبد القاهر قد أسس لتلك القاعدة بناء على أن تلك الجزئية التي أشار إليها في الشاهد جاءت خادمة لقاعدة كلية موافقه لمقصده ، وعلى أساسها شرح ووضح قاعدته البلاغية .

الموضع الثاني : ـ ما جاء توضيحًا أن التفصيل يكون أظهر وأقوى إذا كان وجه الشبه مركبًا .

بنى الإمام دراسته لتفصيل التشبيه على الأعم الأغلب من أن التفصيل في بناء التشبيه يقوي معناه ، فقال : "واعلم أن هذه القسمة في التفصيل موضوعة على الأغلب الأعرف ، وإلا فدقائقه لا تكاد تُضبط "[(١)].

فهذه إشارة واضحة من الإمام عبدالقاهر إلى وجوب الكد وبذل الجهد لإتمام ما بدأه الشيخ من تتبع وجوه التفصيل في شعر الشعراء .

ثم يقول ما يؤكد هذا التتبع من الإمام : " ومما يكثر فيه التفصيل ويقوى معناه فيه ما كان من التشبيه مركبًا بين شيئين ، أو أكثر ، وهو ينقسم قسمين : ـ

(١) الأسرار ، ص ١٦٩ .

أحدهما : أن يكون شيئًا يُقدره المشبه ويضعه ولا يكون . . . والقسم الثاني : أن تعتبر في التشبيه هيئة تحصل من اقتران شيئين ، وذلك الاقتران مما يُوجد ويكون"[١]

هذا وقد وظف الإمام ثلاثة شواهد من شواهد ابن المعتز لتوضيح هذين القسمين وساق تلك الشواهد شارحًا ، وموضحًا ما فيها من تفصيل وتركيب أضاف عليها روعة وجمالًا ، ففي القسم الأول ، وهو ما كان مركبًا خياليًا استشهد عليه فقال : " ومثال ذلك تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ، وتشبيه الشقيق بأعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد" [٢]

ثم بعد أن أشار الشيخ إلى ما في التشبيه من تركيب بين أنه لا بد من اعتبار تلك الأمور مجتمعة ، ثم أشار إلى ما فيها من تفصيل ، فقال : "وكذلك لو خالفت الوجه المخصوص في الاجتماع والاتصال بطل الغرض ، فكما بك حاجة إلى أن يكون الشكل شكل المُدهن ، وأن يكون من الدر، وأن يكون معه العقيق فبك . أيضًا . فقر إلى أن يكون العقيق في حشو المداهن ، وعلى هذا القياس "[٣]

وبهذا فقد أشار الإمام إلى أن التفصيل لا بد فيه من اعتبار أن يكون من الدر وأن يكون معه العقيق على التأليف بينهما ، وأن يكون العقيق معه ، وأن يكون العقيق في حشو المداهن .

ثم بعد أن بين الإمام ما في هذا التشبيه من تركيب وتخييل وتفصيل ترك لتلميذه في آخر كلامه الاستنباط والقياس على هذا الأساس .

أما القسم الثاني : فقد استشهد الإمام عليه بقول ابن المعتز: .

غدا والصبح تحت الليل باد ** كطرف أشهب ملقى الجلال [٤]

---

(١) الأسرار ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢) الأسرار ص ١٦٩ .

(٣) الأسرار ص ١٦٩ .

(٤) الديوان ، ص ٣٨١ .

فكما بين الامام ما في الشاهد السابق من تخييل بين هنا ما في هذا الشاهد من وجود واقعي وحقيقي ، وهو ما أشار إليه بقوله : " أن تعتبر في التشبيه هيئة تحصل من اقتران شيئين ، وذلك الاقتران مما يوجد ويكون " [١] .

وبهذا يكون الإمام بعبقريته الفذة قد ربط بين الشاهدين في التحليل ؛ حتى يقارن بينهما ؛ ليظهر ما بين الشاهدين من تفاوت واختلاف في وجه الشبه ، حيث إن الشاهد الأول وجه الشبه فيه معقود على الخيال ، وليس له حقيقة في الواقع ، أما الشاهد الثاني ، فهو معقود على أمور موجودة ومعلومة ، وهو ما أبرزه الإمام بقوله : " ثم إن هذا الاقتران الذي وضع عليه التشبيه مما يُوجد ويُعهد ؛ إذ ليس وجود الفرس الأشهب قد ألقى الجُل من المُعوز ، فيقال أنه مقصور على التقدير والوهم "[٢]

ثم يبرز المقارنة بين الشاهدين فيقول : " فأما الأول فلا يتعدى التوهم ، وتقدير أن يُصنع ويُعمل ، فليس في العادة أن تتخذ صورة أعلاها ياقوت على مقدار العلم وتحت ذلك الياقوت قطع مطاولة من الزبرجد كهيئة الأرماح والقامات ، وكذلك لا يكون ههنا مداهن تصنع من الدر ، ثم يوضع في أجوافها عقيق ، وفي تشبيه الشقيق زيادة معنى تباعد الصورة من الوجود ، وهو شرطة أن تكون أعلامًا منشورة ، والنشر في الياقوت ، وهو حجر لا يتصور موجودًا "[٣]

ثم يبين الإمام ما في هذا التشبيه من تفصيل أضفى عليه روعة وجمالًا ، وهو ملاحظة خصوصية في الوصف الذي يريد الشاعر الإشراك فيه ، وهو أن الشاعر قال : (مُلقى الجلال) ، لا يريد أنه ألقاه عن ظهره مرة واحدة ؛ حتى تكشف عن كل ظهره مرة واحدة ، بل أراد أنه أداره عن ظهره ؛ حتى تكشف أكثر ظهره تدريجيًا ، وبهذا يحصل وجه الشبه المراد في الطرفين من اعتبار الهيئة المخصوصة في المشبه

---

(١) لأسرار ، ص ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

(٣) الاسرار ص ١٧٠ .

والمشبه به ، وإلا بطل التشبيه ببطلان ما فيه من روعة وخلابة أرادها الشاعر ، وعمد إليها وقصدها من خلال إيحاءات ألفاظه ، وهو ما عبر عنه الإمام بقوله : " وينبغى أن تعلم أن الوجه في إلقاء الجُل أن يريد أنه أداره عن ظهره وأزاله عن مكانه حتى تكشف أكثر جسده ، لا أنه رمى به جملة ، حتى انفصل منه ؛ لأنه إذا أراد ذلك كان قد قصد إلى تشبيه الصبح وحده من غير أن يفكر في الليل ، ولم يشاكل قوله في أول البيت (والصبح تحت الليل باد) " [١]

والمقصود من هذا الوصف هو ملاحظة لحظة معينة في المشبه والمشبه به ، وهي لحظة بداية ظهور ضوء الصبح مع بداية ذهاب ظلام الليل في المشبه ، وفي المشبه به لحظة نزول ما على الفرس الأبيض من لباس يلتصق به ، فيظهر ما تحته من بياض ، والمعتبر من هذا التشبيه تلك الهيئة مع ما فيها من تفصيل ؛ لأنه قد يتوهم من قوله : (مُلقى الجلال) أن الطرف قد ألقى الجلال جملة ، وخطأ هذا الوهم ظاهر ؛ لأنه لو أريد ذلك لكان الغرض تشبيه الصبح وحده من غير تفكير في الليل ، وهذا مخالف لقوله في صدر البيت (والصبح تحت الليل باد) فلا بد أنه ألقاه عن معظم جسمه مع بقائه على باقيه ؛ ليوافق المشبه به المشبه " [٢]

وبهذا يكون الإمام مما يميزه عن غيره : التنبيه على أوهام كثيرة في فهم بعض الأساليب إلا أن الشيخ في تنبيه لم يعرض بأحد تهكمًا أو تعنيفًا .

ثم وازن الإمام بين شاهد ابن المعتز هذا ، وبين قوله :

إذا تبدى البرق منها خلته ** بطن شجاع في كئيب يضطرب

وتارة تبصره كأنه ** أبلق مال جله حين وثب

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل التقديم والتأخير ، ص ١٧٣ .

وأثبت أنه على عكس الشاهد السابق ، فالشاهد هنا الأشبه ، والأظهر هو أن يكون التشبيه فيه على الانفراد بأن يشبه البرق وحده ببياض الفرس الأبلق دون أن يدخل لون الجلال في هذا التشبيه ، وهو ما أشار إليه بقوله : " فلأن شبه فيه أن يكون القصد إلى تشبيه البرق وحده ببياض البلق دون أن يدخل لون الجل في التشبيه حتى كأنه يريد أن يريك بياض البرق في سواد الغمام" (١)

وبهذا يكون قوله : (مال جله) هنا معناه سقط عنه فجأة ، بدليل التشبيه في البيت الأول ، فإن معناه تشبيه بياض البرق ببطن الشجاع أي الأفعى في البياض والاضطراب . (٢)

ثم إن الإمام لم يكتف بالموازنة بين قولي ابن المعتز ليوضح مراده وليشرح فكرته بل تابع هذا التشبيه في النصوص الأخرى ولشاعر آخر ، وهو ابن بابك ' ورأى أن في تشبيهاته ما يلحق بتشبيه ابن المعتز من ناحية أن المراد به اعتبار الانفراد في التشبيه وليس التركيب، فقال : " وقد قال ابن بابك في هذا المعنى :

للبرق فيها لهب طائش ** كما يعرى الفرس الأبلق (٣)

ثم إن الإمام لم يترك الشاهدين حتى وازن بينهما، ورأى لشاهد ابن المعتز فضل وميزة، فقال : إلا إن لقول ابن المعتز : (حين وثب) من الفائدة مالا يخفي "(٤)

فقوله : (حين وثب) جعلت المقصود من وصف البرق هو ملاحظة لحظة ظهور بياضه وحركة لمعانه، فالبرق يلمع بغتة ، كما يظهر بياض الأبلق بغتة عند وثوبه وسقوطه ، فبقوله: (حين وثب) تحقق ذكر الزمن في الشاهد الأول، ولقد أشار الإمام إلى ذلك حين قال :" بل ينبغي أن يكون الغرض بذكر الجُل أن البرق يلمع بغتة، ويلوح

(١) الأسرار ، ص ١٧١ .
(٢) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل التقديم والتأخير ، ص ١٧٤ .
(٣) الأسرار ، ص ١٧١ .
(٤) الأسرار ، ص ١٧١ .

للعين فجأة ، فصار لذلك كبياض الأبلق إذا ظهر عند وثوبه وميل جله عنه" [1] أما قول ابن بابك لم ينص فيه على لحظة لمعان البرق وظهوره ، وبالتالي فالبياض يمكن أن يبصر بعد حدوث التعرية بزمن .

وهنا نلحظ أن هذا الشاهد قد يتوهم فيه أن التشبيه مركبًا ، ولكنه بتفصيل الإمام وتوضيحه لمراد الشاعر ، وعقده للموازنات قد أزال هذا التوهم .

وبهذا يكون الإمام لم يقصد بذكر الشواهد هو ذكر الأمثلة والنماذج ، بل إنه يتجاوز القاعدة إلى ما فيه دلالة على إدراكه للنصوص عند الشاعر ، وليس هذا فحسب بل عند غيره من الشعراء ، مع عقده مقارنة وموازنة بين قول الشاعر وقول غيره من الشعراء مما يضيف شيئًا مختلفًا من خلاله يميز الشعراء بعضهم عن بعض .

واتخذ كذلك من ألفاظ الشاعر وبناء تراكيبه وسيلة وأداة لبناء الحس الذوقي عند تلاميذه حتى يكون هو الأساس والمعول الأول عندهم في بناء ملكتهم وحسهم البلاغي.

وبهذا يكون الإمام نص على خصوصيات معينة في الأبيات هذه الخصوصيات تمثل جزئيات ، ولكن بتركيزه هذا قد ذكر خصوصيات كلية تمثل قواعد كلية .

ومما يتكشف لنا ـ أيضا ـ محاولة الإمام البحث عن أوجه المزية في تفوق نص على آخر مما نجم عن ذلك ظهور مقاييس تحليلية وقواعد بلاغية ، وهذا مما يدل على أن النظرة الكلية لا بد وأن تكون مستوعبة لجميع الملابسات التي يمكن أن تحيط بالمقول، فهذه النظرات الجزئية ليست بمعزل عن النظرات الكلية ، بل تفهم في إطارها وفي ضوئها ، وإلا فإن النتائج تكون غير دقيقة لتأسيس القاعدة الكلية ؛ إذ بالجزئيات تُقام الكليات .

والعالم المدقق لا تتحقق له المزية ، حتى يُصقل عقله بفقه الكليات ، ومرام الجزئيات حتى يبصر من خلالهما تشعب العلوم ، وسعة مسالكها .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧١ .

المبحث الثاني

النظرة الكلية من خلال مخاطبته لعقل المتلقي ووجدانه بما يعرضه من مضمون .

لقد بنى الإمام عبد القاهر كلامه في بناء القاعدة البلاغية في الأعم الأغلب على إشارك المتلقي معه في استنباط القاعدة عن طريقة استثارة العقل بالإشارة إلى المواضع الدقيقة ، ومن خلال البحث عن أوجه المزية بين نص وآخر ، ونلحظ هذا في مواضع منها : .

الموضع الأول : .في الحديث عن فائدة التمثيل ، وسبب تأثيره في النفوس .

استخدم الإمام عبد القاهر شعر ابن المعتز ؛ ليكون تفسيرًا لبعض مقولاته ؛ وليضرب بها المثل على ما يريد ، ومن ذلك ما ذهب إليه من أن المشاهدة أبلغ تأثيرا في النفوس ، فقال : " فإذا رجعنا إلى التحقيق فإنا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر " (١)

وكلمة الشيخ عبد القاهر (فإذا رجعنا إلى التحقيق) تدل على هذه النتيجة التي توصل إليها راجعة بعد تتبع ، واستقصاء ، ومبنية على أقوال المحققين من العلماء حتى وصل إلى تلك النتائج المتحققة والمجيبة على كل الأسئلة التي تدور في ذهنه .

ولذلك فقد عكف على كثير من الشواهد ، ومنها شعر ابن المعتز ؛ ليدلل على ذلك ، فقال :"ومما يدلك على أن التمثيل بالمشاهدة يزيد أنسًا ، وإن لم يكن بك حاجة إلى تصحيح المعنى ، أو بيان لمقدار المبالغة فيه أنك قد تعبر عن المعنى بالعبارة التي تؤديه وتبالغ وتجتهد حتى لا تدع في النفوس منزعًا ، نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالطول : يوم كأطول ما يتوهم . . . وكذلك تقول: يوم كأقصر ما يتصور ،

(١) الأسرار ص ١٢٦

وكأنه ساعة ، وكلمح البصر ، " كلا ولا " فتجد هذا مع كونه تمثيلًا لا يؤنسك إيناس قولهم : أيام كأباهيم القطا ، وقول ابن المعتز :

بُدلت من يوم كظل حصاة ** ليلا كظل الرمح غير موات [١]

ولقد ساق الإمام عبد القاهر شاهد ابن المعتز دون أن يعلق عليه ، أو يشرح سبب الأنس فيه ، ولكنه عرضه من خلال الموازنة بينه ، وبين ما سبقه من مقولاته وشواهد عامة ، وجعل القارئ يعتمد على مدى استئناسه وأنسه بالبيت بعد عقد مقارنة بينه وبين غيره من شواهد عرضها الإمام ؛ حتى يصل بنفسه إلى ما يريد أن يقرره الإمام ويصبو إليه .

وبعد أن انتهى الإمام من سرده للشواهد أراد أن ينهى كلامه بتقريره لتلك الحقيقة ، فقال :" ولا تقل إن ذلك لمكان الإيجاز ، فإنه وإن كان يوجب شيئًا منه ، فليس الأصل له ، بل لأن أراك العزم واقفًا بين العينين وفتح إلى مكان المعقول من قلبك بابًا من العين"[٢]

وبهذا يكون الإمام من خلال نظرته الكلية والتي مرجعها التحقيق يبين أن مرجع التمييز بين التشبيه التمثلي وغيره إلى شيئين : .

١ .القبول النفسي

٢ .الاستحسان العقلي

وهذا الشواهد التي ساقها تفتح للعقل مجالًا واسعًا لإثبات تلك الحقيقة العلمية وبيان الحسن من القبيح ، وهذا دليل برهان أن نظرة الإمام الكلية لتلك المسألة الناتجة عن التحقيق قد جاءت بعد خوض في المسألة وملابساتها ، ثم طرح ما توصل إليه أمام المجتهدين من طلاب العلم .

---

(١) الأسرار ، ص ١٢٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

وبهذا يكون الإمام لا يتخذ الشعر وسيلة لمجرد ضرب الأمثلة والشواهد فحسب ، بل يتخذ منه وسيلة لبناء شخصية المتلقي من خلال الوقوف مع النص وقفة المتأمل الذي يمرر كل كلمة منه على قلبه قبل مسامعه ، ومن هنا عقد مقارنة بين الأبيات ، وبين ما يشتمل على معانيها بطريق الإيجاز ، وأراد القارئ والمتلقي أن يفاضل بينهما ليلحظ أن هذه الكلمات ما جاءت إلا لتجلية الصورة ، وتوضيحها ؛ لزيادة أنس النفس بها ، وقبولها .

الموضع الثاني : في توضيح أن التفضيل يحتاج إلى زيادة تأمل فيكون أغرب مما تفصيله أقل .

في قول ابن المعتز:

كأن الثريا في أواخر ليلها ** تفتح نور . . . .

استشهد الإمام عبد القاهر بصدر هذا البيت في معرض حديثه عن أن التفصيل يحتاج إلى زيادة تأمل وكد للقريحة ، فقال : "ومعلوم أن هذا التفصيل لا يقع في الوهم في أول وهلة بل لا بد فيه من أن تتثبت وتتوقف وتروى وتنظر في حال كل واحد من الفرع والأصل ؛ حتى يقوم حينئذ في نفسك أن في الأصل شيئًا يقدح في حقيقة الشبه "[1]

وقد جاء الإمام بهذا البيت ناقصًا حيث اقتصر على ذكر صدره دون العجز ، حيث موضع الشاهد ، ولم يكن هذا سهوًا منه ، أو من المحقق ، بل جاء به مقصودًا ؛ ليرمى به إلى مغزى معين يظهر من خلال تحليله للبيت ؛ إذ المراد هو تشبيه الثريا في أواخر ليلها تفتح نور ، ثم وازن بين هذا التشبيه ، وبين تشبيه بعنقود ملاحيه حين نورا .

وقد قال الإمام في بيان الموازنة بين التشبيهين لتوضيح مراده : "كما أنك لو قدرت أن يكون تشبيه الثريا بعنقود ملاحية حين نور بمنزله تشبيهها بالنور على الإطلاق أو

(١) الأسرار ، ص ١٦٤ .

تفتح نور فقط ، كما قال :

(كأن الثريا في أواخر ليلها ** تفتح نور . . .)

حتى ترى حاجتهما إلى التأمل على مقدار واحد ، وحتى لا يحوج أحدهما من الرجوع إلى النفس ، وبحثها عن الصور التي تعرفها إلا إلى مثل ما يحوج إليه الآخر ، أسرفت في المجازفة ، ونفضت يدًا بالصواب والتحقيق " (١)

فالتشبيه الذي معنا لم يلاحظ فيه أكثر من أنها أجسام بيض صغيرة مستديرة ، ولم بلاحظ فيه الشكل والاجتماع ، كما في التشبيه الآخر .

وبهذا يكون في مجيء الشاهد ناقصًا مقصودًا وليس سهوًا ؛ لأنه قصد الموازنة بين هذا التشبيه على حده هذا ، وبين تشبيه الثريا بعنقود ملاحيه حين نورا ؛ لأنه لو أتى بعجز البيت كاملًا ، فقال : (أو لجام مفضض) فإن التشبيه هنا سوف ينحو منحًا آخر ، ويكون من قبيل التفصيل الذي يدخل في غرابة التشبيه .

ثم يبرهن الإمام على أن هذا التشبيه لو فرض أن نظر إلى كل هذه الأوصاف متفرقة غير مجتمعة لما كان لهذا التشبيه ميزة ولا فضل ، فيقول : " يدلك على أن التشبيه موضوع على مجموع هذه الأوصاف ، أنا لو فرضنا في تلك الكواكب أن تفترق وتتباعد تباعدًا أكثر مما هي عليه الآن ، أو قدر في العنقود أن ينثر لم يكن التشبيه بحاله ، وكذلك الحكم في تشبيه الثريا باللجام المفضض ؛ لأنك راعيت الهيئة الخاصة من وقوع تلك القطع والأطراف بين اتصال وانفصال ، وعلى الشكل الذي يوجبه موضوع اللجام ، ولو فرضت أن تُركب مثلًا على سنن واحد طولًا في سير واحد مثلًا ، ويلصق بعضها ببعض بطل التشبيه " (٢)

---

(١) الأسرار ، ص ١٦٤ .

(٢) الأسرار ، ص ١٦٨ .

وبهذا يكون الإمام في عرضه لشواهد ابن المعتز في تشبيه الثريا أشار بهذا البيت أن منها ما يدخل تحت البعيد الغريب بكثرة ما فيه من تفصيل ، ومنها ما هو قريب لعدم ما فيه من تفصيل .

وهنا نلحظ أن الإمام عبد القاهر استطاع توظيف شاهد ابن المعتز توظيفًا استطاع من خلاله إثبات أن امتياز كل جزء من البيت بخصوصة تختلف عن الأخرى ؛ لأن كل جزء يختص بخصوصية تختلف عن الأخرى في بناء القاعدة فالنظرة وإن كانت جزئية للبيت إلا إنها كلية بالنسبة للقاعدة .

وبالنظر إلى المسألة التي خاضها الإمام ، وهي بيان أوجه التفصيل ، واستشهاده بجزء من البيت لبيان المراد من القاعدة إنما أراد استكمال المسألة في جميع جهاتها ، وبتقليب المسألة وفق اعتبار النظرة الجزئية للشاهد ، حيث ينظر إلى القاعدة المعتبرة في ذهنه للباب على أنها جزئيات مرتبط بعضها ببعض برابط من النظرات الكلية الشاملة للقاعدة ، والمحكوم عليها به .

الموضع الثالث : ـ ما جاء من شواهد ابن المعتز في بيان أضرب التفصيل .

استشهد الإمام ببعض شواهد ابن المعتز في بيان الوجه الأول من أوجه التفصيل ، فقال : " ثم إنه يقع على أوجه أحدها : وهو الأول والأحق بهذه العبارة أن تفصل بان تأخذ بعضًا وتدع بعضًا ، كما فعل في اللهب حين عزل الدخان عن السنا وجرده ، وكما فعل الآخر حين فصل الحدق عن الجفون وأثبتها مفردة فيما شبه ، وذلك قوله : لها حدق لم تتصل بجفون ، ويقع في هذا الوجه من التفصيل لطائف ، فمنها قول ابن المعتز :

بطارح النظرة في كل أفق ** ذى منسر أقنى إذا شك خرق

ومقلة تصدقه إذا رمق ** كأنها نرجسة بلا ورق [1]

(١)البيتان في ديوانه من أرجوزة في الطرد. والمنسر: منقاره الذي يستنسر به، ومنقار البازي، أبو زيد: منسر الطائر: منقاره بكسر الميم لا غير.(ينظر : الأسرار ص٤ ١٦) .

وقوله :

تكتب فيه أيدي المزاج لنا ** ميمات سطر بغير تعريق [١]

فقد استشهد الإمام بشواهد ابن المعتز السابقة في بيان الوجه الأول من أوجه التفصيل بأن يكون معك وصفان أو أكثر ، ثم تنظر فيهما ، وتعتبر بعضها ، وتترك الآخر ، ولقد أشار الإمام بهذه الأبيات دون أن يتعرض لها بالشرح والتوضيح ؛ اعتمادًا على ذكاء القارىء من جهة ؛ ولأنها لا تحتاج إلى وقفة منه من جهة أخرى باعتبار أن هذا الوجه من أوضح أضرب التفصيل .

وتوجيهات الإمام عبد القاهر وإرشاداته حول هذه المسألة ربما يرجع لأمور منها :

١ ـ إمعانه الشديد في المسألة من كافة وجوهها ، وأن التفصيل في التشبيه مما يحتاج إلى إمعان شديد ؛ لأن المتلقي مهما دقق ووسع في مداركه ، فلن يستطع إدراكه من كل الزوايا ، وتبقى نظرته مختزلة لزوايا أخرى .

٢ ـ محاولته تثبيت القاعدة بأكثر من صورة وبأكثر من وجه ، وبيان أن كل ما يصل إليه الإنسان في العلم ليس نهائي أو مطلق ؛ لأنه مقيد بعقل الإنسان ونظرته وأدواته ، وهذه الأشياء ليس من طبيعتها أن تعطي نتائج كاملة أو حقائق نهائية مطلقة .

٣ ـ بيان أن النظرات الكلية للحقائق والقواعد الكلية تكشف بالنظر الجزئي أولا والبحث والتطبيق ، وفق ما يهديه عقله إلى حقائق علمية ، ونظرات كلية .

(١) البيت لابن المعتز في ديوانه، يذكر قدح خمر، وقبله:لا شيء يسلي همي سوى قدح ... تدمى عليه أوداج إبريق ، والتعريق: المد الزائد في الحروف كالميم وغيرها من الحروف.(ينظر : الأسرار ص ١٦٤)

الخـــاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بلغ الحمد منتهاه ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى آله وصحبه ومن وآلاه، وبعد ،

بعد تلك الرحلة العلمية مع علمين من أعلام العربية حول النظرة الكلية يمكن أن نخرج ببعض النتائج ، والتي منها :

١ ـ النظرة الكلية عند الإمام في المذهب الفني لابن المعتز كانت تعتمد على النظر للصورة الإجمالية التي تؤيدها الصور التفصيلية لشعره خاصة [١]، أو لشعره مقارنة مع غيره [٢].

٢ ـ قد أسس الإمام عبد القاهر للقاعدة البلاغية بناءً على أن تلك الجزئية التي أشار إليها في الشاهد جاءت خادمة لقاعدة كلية موافقة لمقصده ، بمعنى أن تلك الجزئية احتوت على جزئية تدل عليها وداخله تحت نظرة كلية في عقل الإمام ، وعلى أساسها شرح ووضح قاعدته البلاغية [٣].

٣ ـ أثبت البحث أن النظرة الكلية لا بد وأن تكون مستوعبة لجميع الملابسات التي يمكن أن تحيط بالمقول ، فالنظرات الجزئية ليست بمعزل عن النظرات الكلية ، بل تفهم في إطارها وفي ضوئها ، وإلا فإن النتائج تكون غير دقيقة لتأسيس القاعدة الكلية ؛ إذ بالجزئيات تُقام الكليات [٤].

٤ ـ إن طبيعة الإمام وعبقريته الفذة في تعامله مع النصوص الشعرية لبناء القواعد

---

(١) راجع ص ١٦٨، ١٧٩ من البحث .
(٢) راجع ص ١٧٦ من البحث .
(٣) راجع ص ١٩٣ من البحث .
(٤) راجع ص١٩٨ من البحث .

البلاغية جعلته يرصد الشواهد في ذهنه ، فيختار منها ما يصل إلى أهدافه البعيدة بأساليب متعددة ، ونماذج مختلفة ، وأنظمة حوارية متعددة [١].

٥ ـ اعتمد الإمام في طريقة عرضه على الإقناع والامتاع من خلال مقولاته الحوارية بعد فلي للشاهد ؛ ليأخذ منه ما هو دليل على مقولته النظرية ؛ حتى يصل بالقارىء والمتلقي إلى الإقناع عن طريق الإبداع في عرض فكرته [٢] .

٦ ـ إن من مناط التميز عند الإمام في عرضه للشاهد هو الأسلوب التحليلي الرائع لنموذج معين ؛ حتى يصل إلى ما يريد تقريره في نفس القارىء من خلال مخاطبة الحس الذوقي لديه [٣].

٧ ـ النظرة الكلية عند الإمام تتطلب تيقن القاعدة الكلية في كل باب ، ثم النظر الخاص لكل مسألة على حدة ، ثم سحب القاعدة عليها بما يثبت حكمًا عامًا كليًا ، فالشواهد الجزئية عند الإمام حصل في مجموعها إثبات قاعدة كلية ، فكون إيراد كل شاهد لشاعر بعينه على حدة يمثل نظرة جزئية إلا إن انتظام تلك الشواهد مع تنوعها ، واختلاف أجناسها وصورها في حكم واحد لبناء قاعدة بلاغية يمثل نظرة كلية [٤] .

٨ ـ إن الإمام وظف الشواهد الجزئية ، وعقله الواسع المطلع على نتاج الشعراء ؛ لاستيعاب نظرته الكلية ؛ ولينهض بقاعدته البلاغية ؛ ومن ثم يحصل على نتائج مؤداها أن تكون نظرته الكلية حاوية محيطة بالجزئي ، والجزئي منها ما هو إلا جزءًا من الكلي [٥].

٩ ـ أن كثرة استشهاد الإمام بأكثر من شاهد ، وبأكثر من شاعر يظلهم زمن واحد يفتح

---

(١) راجع ص ٢٠٣ من البحث .
(٢) راجع ص ٢٠٦من البحث .
(٣) راجع ص ١٨٨ من البحث .
(٤) راجع ص١٩٢ من البحث .
(٥) راجع ص١٨٩ من البحث .

مجالًا واسعًا للعقل للموازنة بينهم ، والحكم بالحسن منها والقبيح ؛ مما انعكس على مقصود الإمام عبد القاهر في بناء القاعدة بنظرته الكلية المستوعبة لنتاجهم الشعري [١] .

توصيات البحث

يوصي البحث الباحثين باستكمال النظرات الكلية عند شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر . والتي أشار إليها البحث في التمهيد . لأن الحاجة إلى الوقوف على هذا الباب في تراثنا القديم يعد تماشيًا مع سير السلف ، وتتبعًا لخطاهم .

(١) راجع ص ١٨٨ من البحث .

المراجع والمصادر

١ ـ أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ، المحقق: محمود محمد شاكر ، الناشر: مطلعة المدني بالقاهرة ، ودار المدني بجدة ، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩١م .

٢ ـ الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، تأليف : أحمد الشايب ، ط : مكتبة نهضة مصر ٢٠٠٠م .

٣ ـ الأسلوب والأسلوبية، تأليف: عبد السلام المسدي، دار الكتب الجديدية. بيروت، ط١ : ٢٠٠٦ م .

٤ ـ الإيضاح للخطيب القزويني ، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي ، الناشر: دار الجيل – بيروت ، الطبعة: الثالثة (بدون تاريخ) .

٥ ـ البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة ، تأليف : سعد مصلوح ، مجلس النشر العلمي ـ الكويت ط ١ : ١٩٧٣م .

٦ ـ البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين الجرجاني وابن سنان الخفاجي ، تأليف / علام عبد العاطي غريب على ، طبعة بيروت ، ط١ : ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .

٧ ـ البلاغة فنونها وأفنانها ـ علم البيان عباس فضل عباس ، ط١٠ : طبعة دار الفرقان ـ عمان (بدون تاريخ) .

٨ ـ تاج العروس للزبيدي ، المحقق: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية (بدون تاريخ)

٩ ـ تاريخ بغداد المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي ، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف ، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢ م .

١٠ . تاريخ دمشق لابن عساكر، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي ، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

١١ . التعريفات للجرجاني ،الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان ، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م .

١٢ . التعريفات الفقهية ، تأليف : محمد عميم الإحسان المجددي البركتي ، الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

١٣ - الحاوي للفتاوي في الفقه وعلم التفسير والحديث واالأصول والنحو والإعراب وسائر الفنون للسيوطي ، تحقيق : عبد اللطيف حسن عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، ط١ : ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠م .

١٤ . دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل . و التقديم والتأخير ، للأستاذ الشيخ / عبد الهادي العدل مراجعة عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ١٩٥٥ م .

١٥ . ديوان صالح بن عبد القدوس ، جمع وتحقيق : عبد الله الخطيب ، النار : دار منشورات البصرة - بغداد (بدون تاريخ) .

١٦ . ديوان المتنبي ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

١٧ . ديوان ابن المعتز ، دار صادر بيروت ١٤٩هـ /٨١٦م .

١٨ . سير أعلام النبلاء ط الرسالة ، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ، الناشر: دار الحديث- القاهرة ، الطبعة: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م .

١٩ . الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، المؤلف: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللَّه ، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

٢٠ ـ طبقات الشعراء لابن المعتز ، المحقق: عبد الستار أحمد فراج ، الناشر: دار المعارف – القاهرة الطبعة: الثالثة (بدون تاريخ)

٢١ ـ علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع تأليف / أحمد مصطفى المراغي ، الناشر : دار الكتب العلمية بيروت ، ط٤ : ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م .

٢٢ ـ الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري الفرق بين الكل والجمع، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر،(بدون تاريخ)

٢٣ ـ فن القول للدكتور لأمين الخولي ، قدم لهذه الطبعة أ د / صلاح فضل ، مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٩٦م .

٢٤ ـ الكامل في ضعفاء الرجال ، المؤلف: أبو أحمد بن عدي الجرجاني ، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود–علي محمد معوض ، شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، الناشر: الكتب العلمية – بيروت–لبنان (بدون تاريخ) ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ /.١٩٩٧م .

٢٥ ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ .

٢٦ ـ لسان العرب لابن منظور ، ط٣ : ١٤١٤ هـ .

٢٧ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة .

٢٨ ـ المخصص ، لابن سيده ١ / ٣٨٣ ، المحقق: خليل إبراهم جفال ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م)

٢٩ ـ مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب لأمين الخولي، طبعة دار المعرفة الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٦١ م.

٣٠ . منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثالثة : ١٩٨٦م .

٣١ . مفتاح العلوم ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

٣٢ . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي ، المحقق: إحسان عباس الناشر: دار صادر – بيروت) (بدون تاريخ)

٣٣ . يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي ،المحقق: د. مفيد محمد قمحية ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت/لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.